
ذات الهمة
عباس خضر

ذات الهمة

تأليف
عباس خضر

الى الأبطال

الى أبطالنـــا المرابطـــين عـلى الحـــدود في وجـه العـدو . . ليروا صورة من كفاح أبطـال مثلهم ... تصدوا لأعـــداء العـرب . . وناضلوا من أجل العروبة والاسلام .

وما أشبه الليلة بالبارحـــة !

عبـاس خضر

مقدمة

كم فى أدبنا الحديث من ذخائر . .

وهى ذخائر مدفونة فى تراب . . تراب تراكم عليها من جراء الأعراض عنها ، لا من عامة الشعب فهى أدبهم المحبوب ، بل من الأدباء ومؤرخى الأدب ودارسيه فى الماضى والحاضر ، ما عدا قلة قليلة من المعاصرين ، والإعراض عنها كذلك من سواد المتعلمين الذين حصرهم التعليم الحديث أو القديم فى أجواء من الآداب والثقافات لا مكان فيها للآداب الشعبية ، وتوهموا أنها ليست إلا كلاما فارغا يتلهى به الجهلاء . .

كانت نتيجة ذلك الإعراض أن ظل الأدب الشعبى على حاله بترابه . . وعزله عن التناول الذى يجعله ملائما ميسرا لمن يطلبه .

وتصور أن أدب العصور المتأخرة ، قبل عصر النهضة الحديثة ، أهمل وظل على حاله ... كيف يكون حاله وكيف تكون نظرتنا الآن إليه !

لقد خدم الأدب الشعبى أهله أيام سيادته ، وقدموه لمعاصريهم ، إما منشودا مصحوبا بموسيقى الربابة ، أو منشورا فى كتب بأسلوب يلائم من تعلموا القراءة وفك « الخط » .

ووقف عند ذلك الحد فى أوراقه الصفراء وأطماره البالية ، ينظر إليه معظم الناس شذرا ، كأنه دخيل ، وهو الأصيل .

وكان لا بد — فى تقدمنا وشعورنا بالاصالة المصاحب للوعى القومى الجديد — أن نلتفت إلى أدبنا الشعبى ، فنوليه ما ينبغى من دراسته ، ومن إعادة كتابته واستيحائه ، على نحو يختلف من كاتب إلى آخر . وقدمت ونشرت أعمال من هذا وذاك ، فى الجامعة وفى المجال الأدبى العام ، واهتم به المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وألفت فى المجلس لجنة لتحقيق التراث الشعبى الأدبى ونشره ، وإن كان لم ينفذ شيء من ذلك بعد ، وإن كنا نحمد للمجلس أن منح جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية للزميل الأستاذ فاروق خورشيد على روايته « سيف بن ذى يزن » .

ويسرنا أن صحب الاهتمام بالأدب الشعبى اهتمام بالفنون الشعبية الأخرى ، فاستوحيت وطورت فى الموسيقى والرقص والغناء .

وهذه القصة « ذات الهمة » مشاركة فى ذلك ، ومتابعة لإنتاجى السابق فى هذا المجال . كتبت أولا قصصا قصيرة شعبية نشرت فى مجموعتين بعنوان شامل « حواديت عربية » عنوان الأولى « الطير الحدارى » والثانية « أم السعد » . ثم كتبت قصة طويلة « حمزة العرب » عن قصة « حمزة البهلوان » . ثم كتبت قصة طويلة أيضا « الصحصاح » والصحصاح هو جد « ذات الهمة » والقصتان بنيتا بناء جديدا أخذت مواده الأولية من « سيرة ذات الهمة » إحدى الشوامخ فى الأدب الشعبى العربى .

ومما عنيت به فى هذه القصة تصوير بطلتها (ذات الهمة) فتاة عربية تحس بما فى مجتمعها من منازعات قبلية تلابسها غارات واعتداءات ونهب وسلب ، فتثور على ذلك كله ، وتعمل على تجميع القوى العربية لمكافحة العدو الخارجى الذى يرمز إلى التجمع الغربى الصليبى المعروف فى التاريخ .

وكان عملى فى هذه القصة على وجه عام مثل ما فعلته فى قصصى السابقة ، وهو كما قلت فى مقدمة « الصحصاح » :

« وقد عملت على إخراج القصة فى صورة تلائم ذوق العصر ، إذ تأملت فوجدت أن الذين كانوا يقرأون الملاحم الشعبية أو يسمعونها من المنشد على (الربابة) قد انقرضوا أو كادوا ، وأن القارئ الحديث لا يستسيغ قراءتها كما هى . وأن فيها (مادة خام) تصلح لأن تكون مصدر إلهام لأعمال أدبية وفنية جديدة ، ولأن يبنى منها الكاتب مثل هذا البناء الجديد الذى تطالعه فى هذه القصة ... مطابقا أو قريبا من فن القصة الحديث شكلا ومضمونا ، مع الحرص على بعض السمات والملامح الأصيلة التى تحفظ نكهة الأصل . . وأقول فى اختصار وإجمال : إنى أردت بهذا العمل أن أخاطب أبناء عصرى بما يلائم أذواقهم واهتماماتهم » .

وأرجو من الله العون على استمرار المتابعة .

عباس خضر

— ١ —

مات « الصحصاح بن جندبة الكلابى » أمير العرب ببادية الحجاز ، تاركا وراءه ولدين أحدهما « ظالم » من زوجته « ليلى » بنت عمه ، والآخر « مظلوم » من زوجته الثانية « أمامة » التى تزوج بها وأبقاها فى قومها « بنى الوحيد » .

رحل ظالم فى جماعة من وجوه قومه « بنى كلاب » الى دمشق ، واستأذن فى الدخول على الخليفة « سليمان بن عبد الملك » فأذن له ، واستقبله بالاكرام والترحيب لما علم أنه ابن « الصحصاح » الذى دافع عن الدولة العربية ، وغزا بلاد الروم ، وانتصر على جبابرتها ، وكتب له بالإمارة مكان أبيه .

وعاد ظالم الى دياره فى البادية ، وأقبلت عليه وفود العرب تهنئه فأغدق عليهم الأموال مما ورثه عن أبيه من المال الكثير ، الذى استولى عليه وحده ولم يعترف بأخيه الصغير « مظلوم » وقال لمن كله فى شأنه : إن أبى ما كان له زوجة غير أمى ليلى ، ومن شهد بغير ذلك ضربت عنقه .

وقيل لأمامة أم مظلوم : خذى ولدك واذهبى به إلى أخيه ، وهنئيه بالإمارة ، فلعل قلبه يلين ويعطف على أخيه ، ويعطيه بعض حقه وقد يوفيه .

وكان الطفل اليتيم قد بلغ وقتذاك من العمر خمس سنين ، فزينته أمه وألبسته على قدر ما استطاعت ، وقصدت به إلى ظالم ، ودخلت عليه ، ووضعته بين يديه وهى تبكى .. فقال لها ظالم :

— ويلك .. مالك ؟ ومن هذا الولد ؟

مسحت الأم دموعها وقالت ضارعة :

— يا أمير العرب ، بحق النبي المنتخب ، لاتقطع ما بيننا من النسب .

— وماذا تريدين ؟

— هذا هو أخوك ابن أبيك ، فلا تخيب أملنا فيك ، ولاتخرج عن السنة والشريعة .

فما سمع ذلك حتى زفر ، وطار من عينيه الشرر ، ولطم الصغير لطمة أسالت الدم من فمه ، وقال لأمه :

— إذهبي إلى قومك .. ولئن عدت به إلى ثانية لأهتكن سترك ، وأذيقنه فقدك ، وأذبحنه على صدرك .

أخذت أمامة طفلها اليتيم ، وخرجت باكية ترفع صوتها بالدعاء :

— يارباه .. يامنصف المظلوم من الظالم .. خذ لولدى حقه من أخيه ظالم .

ورجعت إلى بنى الوحيد وأخبرتهم بما كان وما جرى لها ، فجعلوا يترفقون بها ويعطفون عليها . وعكفت على تربية ابنها إلى أن كبر واشتد عظمه وقوى جسمه ، وصار ينظر إلى الفرسان ويحاكيهم ، ويخرج فى الصيد ، ويركب ما يتاح له من الخيل ، والفرسان يعطفون عليه ويدربونه ويفسحون له المجال . ويوما قال لأمه :

— أريد حصانا يكون ملكى .

— يابنى إنى أحتفظ بثياب من الأطلس ، مما جلبه أبوك من بلاد الروم ، فخذها وبعها واشتر بثمنها ما أحببت .

اشترى شيوخ بنى الوحيد من مظلوم ثياب الأطلس بأثمان مرتفعة لكى يتوافر له مايشترى به ما يريد . فاشترى خيلا وجمالا وغنما ، وجعل يركب الى الصيد ويركب معه شباب الحى الذين التفوا حوله وصار له منهم اصحاب يحبونه وأعوان بأرواحهم يفدونه . وقال له فرسان بنى الوحيد : لماذا تسكت على ظلم أخيك ؟ نحن معك ولا ننسى أفضال أبيك ، وبنفوسنا نفديك .

— ٢ —

علم ظالم بأن أخاه مظلوما قد صار له شأن وأعوان من الفرسان ، فقال : لقد غفلت عنه حتى عظم بأسه والتف حوله بنو الوحيد ، ولابد ان اضع السيف فيهم وأقضى على هذا الغلام الذى يدعى أنه أخى .

ووصل هذا الكلام الى مظلوم وبنى الوحيد ، فاجتمعوا ، وقال لهم مظلوم :

— قد علمتم ما أبداه ظالم من التهديد والوعيد ..

فقال أحدهم :

— علينا أن نبدأ به قبل أن ينفذ وعيده .

وقال مظلوم :

— مالنا إلا قوة العزائم ، وإلا فتك بنا هذا الظالم الغاشم .

* * *

سار مظلوم على رأس جمع كبير من فرسان بنى الوحيد إلى حى بنى كلاب ، وهو يقول : لابد أن آخذ نوق اخى وجماله ، لأنها بعض حقى من أبى .

وأغاروا على إبل ظالم وخيله ، وساقوها ... وارتفعت أصوات الرعاة والعبيد وفزع الحى ... وخرج ظالم يسأل :

— ويحكم ... ما الخبر ؟

قالوا :

— إن مظلوماً أتى فى جمع من بنى الوحيد ، وأخذوا أموالك من المراعى ، وقال لمن تصدى له : إن هذا بعض حق من أموال أبى ..

فقال ظالم ساخراً وهو يتمزق من الغيظ :

— أحسنت والله يا ابن أمامة.. سبقتنى الى ما كنت أريد من إزهاق روحك.. ويلك أنت و بنو الوحيد ..

ثم صاح فى بنى كلاب :

— يال كلاب .. يال كلاب ..

ركب الفرسان أعوان ظالم ، وكلهم من الشباب الذين ربوا معه و نسجوا على منواله وأطاعوه فى الظلم والجهالة .

وأما مشايخ الحى ورجال القبيلة من أصحاب الصحصاح فقد هالهم أن يخرج الأخ لأخيه ، ويستعين على قتاله بالطائشين والمندفعين من رجاله ، وقال قائلهم :

— ياقوم .. أليس مظلوم ابن الصحصاح ؟

ورد آخـر :

— بلى ، وهو مثل أبيه فى الفعال والشمائل ..

وقال الأول :

— فكيف نسلم ابن الصحصاح ونخون العيش القديم ؟ والله لانمكن هذا الظالم الغاشم من ظلم هذا اليتيم ..

وتجمع هؤلاء ، وركبوا فى أثر ظالم وأعـوانه ، وحملوا عليهم ، ووقفوا فى طريقهم .

وكان أكثر الشباب المتحمسين لظالم من أولاد الذين هبوا لنصرة مظلوم ، فلما التقوا بهم استحوا من قتال آبائهم ، وأغمدوا سيوفهم .

ولما نظر ظالم إلى ذلك فزع وانبهر وصاح :

— ماهذا ؟ هل تتخلون عنى وتعينون على ولد الخنا .. ؟

فقالوا له :

— والله ماهو ابن خنا .. وحاشا الصحصاح أن يكون قد فعل ماتنسب اليه. فما كان يفعل الا الحلال ، وما نرى مظلوما الا مثله فى الفعال .

وقال أحد الشيوخ لظالم :

— يابنى ، ارجع عن هذا ، فما هو صواب ، ولا تكن سببا فى الشقاق والخراب ، لقد وحد أبوك الصحصاح بين القبائل ، وجمع كلمة العرب ، وحارب بهم جبابرة الروم وانتصر عليهم وفتح بلادهم ، وأنت تريد أن تمزق بنى كلاب وتجعل القبيلة فريقين يتنازعان فتذهب ريحهم ويطمع فيهم الأعداء .. يابنى لاتقطع مابينك وبين أخيك من النسب ، وشد به ظهرك ، ألم تسمع قول رب العالمين على لسان موسى عليه السلام : واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى واشركه فى أمرى ؟ واعلم أن الأخ أحد الجناحين ، وإياك أن تسن سنة مذمومة بين العرب لا تجنى من ورائها غير العطب .

ولم يزل القوم بظالم يلومونه ويهددونه حتى لان وقال لهم : افعلوا ما تشاؤون.

أتى بنو كلاب بمظلوم ، وأصلحوا بينه وبين ظالم ، ونحرت الذبائح ، وأقيمت الولائم ، وفرحت القبيلتان : بنو كلاب ، وبنو الوحيد بصلح ولدى الصحصاح . وأخرج ظالم لأخيه مظلوم النصيب الذى أقر به من أموال أبيه ، وهو شىء كثير من الخيل والابل والجواهر والسرادقات والخيام ، بعضها من الديباج ، وبعضها من الشعر ، والأسلحة المنوعة من سيوف ودروع ورماح ، وغيرها . وأشركه فى الإمارة رضوخا لمشيئة القبيلة .

ولكن الصلح كان على فساد ، وبقيت الحزازات فى الأكباد ، وان كان مظلوم قد طابت نفسه وصفا قلبه فان ظالما كان ينطوى على الدغل وسوء النية .

— ٣ —

قال ظالم لأعوانه وقد رأى العرب تميل إلى مظلوم وتقدمه عليه :

— إن أخى يستميل قلوب الرجال بالزور والمحال ، والناس يجفوننى ويقصدونه من دونى . ولن يطيب لى عيش مادامت الإمارة بيننا مشتركة ، وربما خصه القوم بها وأبعدونى .

فقالوا له :

— مرنا بما تشاء تجدنا طوع أمرك .

قال وهو يزفر :

— لن أستريح حتى أتخلص من ابن أمامه ..

قال أحد الأعوان :

— لو أمرتنا أن نهجم عليه فى بيته ونقتله لفعلنا .

— إن فعلتم فسيقاتلكم أصحابه ، وتثور علينا القبيلة .

وفكر قليلا ثم قال :

— إننا نقضى الأمسيات عند غدير الماء الذى يقع بين حينا وحى بنى الوحيد وسيأتى الليلة كعادته هو وأصحابه ، وعليكم — إذا اجتمعنا — أن تتحرشوا برجاله

حتى يشتبكوا معكم ، فتضربوهم بالسيوف،ويكون أخى مظلوم أول من تقصدونه ،
ولن يكونوا متهيئين للقتال مثلكم .. وسأقف قريبا منكم لأمنع من يجرد سيفا
فى وجوهكم .

* * *

فى المساء كان الرعاة عند الغدير يسقون الأبل والخيل ، واندس بينهم شاب من
أعوان ظالم وهو يقود فرسا ويزاحم ليسقيها ، واختار مكانا قرب رجل من بنى
الوحيد يسقى جملا له ، وقال له مشيرا اليه بازدراء أن يتأخر :

— تنح حتى أسقى .

— ولم لا تصبر وقد جئت قبلك ؟

— قبلى أو بعدى .. كيف تسقى بنو الوحيد قبل بنى كلاب ..؟

وثار الوحيدى ، فتقدم باصرار أمام الكلابى ، وقال غاضبا :

— إذن فليتأخر بنو كلاب .

فجرد الكلابى سيفه وهو يصيح :

— يال كلاب ..

وأسرع باقى رفاقه ، وجردوا سيوفهم وهم يسبون بنى الوحيد .. وقابلهم
الوحيديون بالسيوف ، ووقع الصدام ، وتصايح الصبيان ، وولولت النساء .. ونظر
مظلوم وهم أن يتقدم ، ولمح أصحابه أعوان ظالم يقصدون اليه ، فأحاطوا به يحمونه
بسيوفهم .. على حين وقف ظالم يحرض رجاله على القتال ويمنع عنهم بنى الوحيد.

واستطاع الشيوخ العقلاء أن يدخلوا بين الطرفين ، ويفصلوا بعضهم عن بعض،
ويوجهوا اللوم إلى ظالم ، واندفع ظالم فى حماقته يقول : لقد علمت أن مظلوما يدبر
لقتلى ، فأردت أن أتغدى به قبل أن يتعشى بى .

وعلى الفور اجتمع مجلس القبيلتين ، وعمل الشيوخ على إصلاح ما بين الأخوين. وكان ظالم لايزال فى غضبه وغيظه من خيبة التدبير يزمجر ويتوعد .. أما مظلوم فقد لزم الهدوء ، ولم يزد على أن قال :

— أقسم بالله ما خطر لى شىء مما يقوله أخى ، وما دخل قلبى نحوه أى شر وأنى على أى حال اعذر أخى ، لأنه تأثر بما نقل اليه زورا من بعض الحاسدين لنا.

واصطلح الاخوان ، وعاد الحال إلى ما كان ، ورجع القوم إلى الديار ، وفى قلب ظالم لهيب النار .

— ٤ —

فى ليلة من ليالى الصحراء المقمرة كان وجوه القوم من بنى كـلاب و بنى الوحيد يأخذون مجلسهم على شاطىء الغدير يتحدثون و يسمرون ، قال ظالم المظلوم:

— يا أخى ، زوجتك حامل وزوجتى حامل .. وأنت أمير ، وأنا أمير .. فاجعل الشرط والعهد بيننا أن من جاءت زوجته بولد ذكر كانت الامارة له من دون الآخر ..

فقال شيخ من بنى الوحيد :

— أو ترضى أنت بذلك ؟

— نعم ، رضيت ، وأشهدكم على هذا الأمر .

وسأل رجل من بنى كلاب :

— وإذا جاءت المرأتان بولدين ذكرين ؟

أجاب ظـالم .

— بقيت الامارة على حالها مشتركة بين الاثنين .

وتم الاتفاق على ذلك ، وصار وثيقة ملزمة لـكل من الطرفين .

ولما حان وقت الولادة وضعت زوجة ظالم ولداً ذكرا فرح به أبوه وسماه « الحارث » وراح يمنى نفسه أن تضع زوجة أخيه أنثى فيحسم الأمر الذى يؤرقه ويعكر صفو حيـاته .

ثم وضعت زوجة مظلوم أنثى .. جميلة التقاطيع ، نامية الجسم ، قوية الأعضاء . وقد فزعت أمها خوفا من زوجها .. لما تعلم من الاتفاق المشروط .

قال مظلوم :

— لا أدرى ماذا أفعل .. هل نعلن الحقيقة وأتخلى عن الإمارة .. أو نقتلها ونقول جاء المولود ذكرا ومات .. ؟

سكتت الأم مقهورة ..

وقالت القابلة ..

— ياقوم .. اتقوا الله فى هذه الطفلة .. لاتسلبوا حياتها ، عسى أن يكون لها شأن .

قال مظلوم فى مزيج من الحزن والاستنكار :

— أى شأن يكون لها أيتها العجوز ؟

— إنك لاتدرى .

— وماذا تدرين أنت ؟

— الله وحده يعلم الغيب .

ثم بعد تفكير قالت القابلة :

— اقبل رأيي يا أمير .. أعطها لإحدى الجوارى ، وهبها شيئا من مالك ، كى تربيها ، وإن شئت بعد ذلك ألحقتها بنسبك أو تركتها للجارية .

— وماذا أقول لأخى وللعرب ؟

— ما الشرط بينك وبين أخيك ؟

— الشرط أنه إذا جاءت زوجة أحدنا بذكر وجاءت زوجة الآخر بأنثى انفرد الأول بالإمارة ، وإذا جاء المولودان ذكرين ، ظلت الإمارة مشتركة .

— الشرط إذن ليس على الموت والحياة ، وإنما هو على الذكر والانثى . فقل إن زوجتى جاءت بذكر ومات ودفناه .

استحسن مظلوم هذا الرأى ، وأمر القابلة بالكتمان ، ودعا بجارية اسمها « سعدى » لها ولد على الرضاع اسمه « مرزوق » وأعطوها الطفلة وقدرا كبيرا من المال ، ففرحت ، ووعدت بكتمان أمرها .

— ٥ —

كانت سعدى تأتى بالطفلة الى أمها كل ليلة سرا ، فترضعها وتضفى عليها حنانها وقد أسمتها « فاطمة » . أما أبوها فقد أعرض عنها وتجاهلها ، ولم يكن يحب أن يراها ، وان كان يحمل همها ويخشى أن يعرف سرها . حتى وقع للقبيلة حادث أراحه من ذلك الهم ، ومن القلق الذى كان يساوره دائما بشأنها ..

ذلك أن قبيلة « بنى طى » أرادت أن تثأر من بنى كلاب ، لدماء قديمة بين القبيلتين من عهد جندبة والصحصاح أميرى بنى كلاب السابقين . وقد سكتت عليها زمنا طويلا خوفا من الصحصاح ومصانعة له بعد أن بسط سلطانه على عرب البادية جميعـا .

رأى بنوطى أن الفرصة سانحة لهم ، فالخلاف واقع بين الأخـوين : ظالم ومظلوم ، ولـكل منهما أنصار وكل من الفريقين مشغول بالآخر . فأعدوا العدة لغزوهم ، وجمعوا جموعهم ، وساروا الى بنى كلاب وكان بنو كلاب قد علموا بالأمر وتشاوروا ، واتفقوا على أن يقصدوا بنى طى قبل أن يهاجموهم فى ديارهم .

قصد بنو كلاب حى بنى طى ، وقصد بنو طى حى بنى كلاب .. ولم يلتق الفرسان بالفرسان ، اذ اختلف بينهما الطريق ، فسار كل من الفريقين فى طريق غير طريق الآخر ، ولم يجد كل منهما فى الحى غير الأولاد والنساء والعبيد فنهبوا الأموال وساقوا الجمال وأخذوا العبيد والجوارى ، وكان فى جملة من أخذهم بنو طى الجارية سعدى وابنها مرزوق والطفلة « فاطمة » .

قال بنو طى لسعدى مشيرين الى فاطمة :

— أهذه ابنتك ؟

— نعم ..

— ولـكنها بيضاء وأنت سوداء .. ولست لها بشبيهة .

— انها ابنتى على أية حال .

ولما وزعت الأسلاب بين فرسان بنى طى ، كانت سعدى ومرزوق وفاطمة من نصيب رجل يقال له « الحارث بن شريك » وصاروا يرعون له الابل والخيل ، وهو يشملهم برعايته وحمايته وكرمه ..

وكبرت فاطمة وقوى جسمها ، وطمحت بنظرها الى الفرسان وهم يلعبون على الخيل ويتضاربون بالسيوف ويتطاعنون بالرماح ، وجعلت تخلو إلى نفسها وتحاكيهم ، وتركب خيول مولاها ، وتتعلم الـكر والفر والنزال والطراد . وكانت تصيح صيحة الفرسان ، فيرتعد منها العبيد ، واذا عصى فحل من فحول الابل صاحت به فأرجفته ، واذا جمح حصان تعلقت برقبته وكبحته . كانت تأتى بذلك وغيره من الأفعال التى تدل على قوتها وفروسيتها ، حتى تعجب منها العبيد وأحبوها وصاروا فى طاعتها ، وأعجب بها الرجال والفتيان وقالوا إن هذه الجارية لابد أن تـكون من أصل عربى حر ، وما هذه الفعال الا من صفات العرب الأحرار .

— ٦ —

كانت فاطمة فى المرعى كعادتها عندما مر بها فارس من بنى طى اسمه « قريح بن قابوس » وكانت ترسل الخمار على وجهها فلا يظهر منـه الا عيناها ، على خلاف الاماء اللائى جرت العادة أن يكشفن وجوههن ولا يحتجبن كذوات النسب .

قال لها قريح :

— هلا كشفت وجهك لنرى حسنك ؟

— وماذا تريد منى ؟ اذهب فى حال سبيلك ودعنى .

— لقد أصابت قلبى سهام عينيك ..

— قلت لك اذهب .

عظم عليه أن تخاطبه جارية بلهجة جافة وهو من هو فى فرسان قومه ، فقال لهـا :

— أتتشبهين بنساء الاحرار وتسدلين على وجهك الخمار ؟

فصاحت به فى قوة وغضب :

— أغرب عن وجهى يا نذل العرب ..

انصرف عنها قريح وفى نفسه من الغيظ ما فيها ، وفى قلبه من هواها ما يبرح به . أما فاطمة فانها عندما عادت الى دار مـولاها كانت باكية العـين كسيرة القلب ، قال لها الحارث :

— مالك يا فاطمة ؟

— يامولاى ، قريح بن قابوس تعرض لى فى المرعى وتوقح معى ..

وعلا صوتها ثائرة :

— والله إن لم ينته عنى لأقتلنه .

سار الحارث إلى قريح حتى أقبل على مجلسه ، وقال له :

— ياقريح ، إذا كانت لك رغبة فى فاطمة فأمهرها وتزوجها .

قال قريح مستنكرا وقد ساءه أن يسمع ذلك وبخاصة أمام جلسائه :

— أتريد منى أن أتزوج بأمتك ؟

— فلماذا تعرضت لها إذن وغازلتها ؟

وتدخل بعض الجالسين ، حتى لا يشتد النقاش بين الرجلين ، وانتهى الأمر بأن قال قريح :

— ماعدت أخاطبها .

فرجع الحارث الى منزله وأخبر فاطمة بما كان ، فطابت نفسها ، وذهبت فى الغد الى المرعى ، ولكنها لم تلبث أن رأت قريحا يقبل عليها وهو يقول لها :

— شكيتنى لمولاك ، أتظنين أنى أخشاه ؟ أين هو الساعة يخلصك منى ؟

— ياويلك ، اذهب عنى .. والله ما أنا بحاجة الى من يخلصنى منك ، انما أردت أن أنذرك وأشهد عليك .

فقهقه ضاحكا ، وقال :

— أنت ، والله ما تقتلينى الا بسهام عينيك ..

— عدت الى الفحش أيها اللئيم .

وتناولت حجرا وزجته به ، فانصرف وهو يقول :

— سأذهب الآن ،ولكن اعلمى أنى لن أرجع عنك ولا بد لى منك .

وعادت الى البيت وهى ترتعد وتزفر ، وقالت للحارث :

— عاد اللئيم ، وتعرض لى اليوم.. وإن لم ينته أخذت رأسه وأخمدت أنفاسه..

جعل الحارث يفكر فى الأمر وقال فى نفسه : هذا جاهل أحمق ، وهذه حرة وصاحبة نخوة وحمية ،ولا بد أن أعرض الأمر على سيد القبيلة .

وذهب إلى أمير القبيلة ، وأبلغه ماحدث بين قريح وفاطمة ، وقال له أنى أخشى أن يلح عليها فيحدث مالا تحمد عقباه .

فدعا الأمير قريحا وقال له :

— يا قريح ، مالك وأمة الحارث ؟ لا تتعرض لها أو تزوج بها .

— أيها الأمير ، إنما كان ذلك منى مداعبة ، وما نفسى لها بطالبة .

وكان الأمير قد أمر بإحضار فاطمة ، فحضرت ، ولما سمعت كلام قريح قالت للأمير :

— يامولاى ، إن عاد يتعرض لى فسأقتله .

فضحك الأمير وقال لها :

— يا داهية .. إن تعرض لك بعد ذلك فشأنك وإياه .

— سمعا وطاعة .

وخرج قريح بن قابوس من عند الأمير وهو يقول فى نفسه : كيف تهددنى

هذه الجارية بالقتل ؟ وهل هى جادة فى قولها ، وفى .. إعراضها ؟ لا بد أن يكون لى معها شأن .

فلما كان الغد ركب جواده ، وسار إلى المراعى ، وأقبل على فاطمة مدلا بشجاعته وقوته ، فلما رأته قاصدا إليها فرت منه وجرت بعيداً ، فتبعها بالجواد وهى تجرى حتى سارا بعيدين عن الرعاة .. ثم أقبلت عليه وواجهته قائلة فى غير حدة ولا غضب :

— يامولاى .. ما حملك على هذا الالحاح ؟

— هــواك .

— ما منعتك عن نفسى بغضاً فيك ، ولكن خفت أن تلهو بى وتتركنى ، فيتعلق قلبى بك ولا أجد سبيلا إليك .. وأظل بحسرتى ولوعتى .

— معاذ الله أن يكون منى ذلك ، وهل يمكن الأنسان أن يبعد روحه عن جسده ، وكيف أتخلى عن هذا الجمال ؟

— إن كنت صادقا فى قولك فأعطنى يدك وعاهدنى لا تخوننى ولا تغدر بى ..

فدنا منها فرحا ، ومد لها يده ، فتناولتها بقوة وجذبتها جذبة شديدة ، حتى ألقته على الأرض ، وأسرعت إلى مقبض سيفه ونزعته من غمده ، وضربته به قبل أن يتمكن من النهوض ، فخمدت أنفاسه ..

— ٧ —

عادت فاطمة إلى البيت فى حالة شديدة من الاضطراب ، فبادرها الحارث قائلا:

— ما بالك .. ولماذا عدت مبكرة ؟

— يامولاى ، إنى قتلت قريح بن قابوس .

لم يكن الحارث يحسب أنها جادة فى تهديدها بقتل قريح إن عاد إلى التعرض لها ،وكذلك أمير بنى طى ، بل حملا كلامها على أنه مجرد كلام للتنفيس عن الغضب، فلماوقعت الواقعة ضاقت الدنيا فى وجه الحارث وأيقن أنه قادم على موقف عصيب ، فهومسئول عن جاريته ، والدم الذى أراقته أصبح فى عنقه ، قال لها غاضبا :

— لقد رميت بى فى البلاء يابنت اللئام ..

فسكتت مقهورة وقلبها ينطوى على كثير من المشاعر .

وأخذها ، وسار بها إلى الأمير ، وأبلغه ما حدث ، وقال له :

— يا أمير ، من هذا كنت خائفاً ..

وقالت فاطمة :

— يا أمير لقد أبحت لى دمه إن تعرض لى ولا حقنى ، وقد فعل ، فدافعت عن شرفى .

قال الأمير :

— لا عليك ولا عليها .

وبينما هم كذلك ، دخل إخوة قريح ، وكانوا قد بحثوا عن الحارث كى يقتلوه ، فقيل لهم إنه لجأ إلى سيد القبيلة ، وقال الأخ الأكبر :

— لن يذهب دم أخينا هدرا .

وجمع الأمير مشايخ القبيلة ، فاجتمعوا عنده ، وحكموا بأن يؤدى الحارث دية قريح : ألفا من الابل .

أدى الحارث الدية ، وقد وقع بسببها فى أزمة لم تبق له على مال .

وفى لحظة من الغضب حمل سوطا ودخل على فاطمة ليضربها وهو يقول لها :

— يا داهية ، لقد كنت شئوما على .. أفقرتنى حتى لم يبق عندى ما أطعمكم به .

قالت له وهى تكظم مشاعرها :

— يامولاى ، لا تحمل على ، واسمع منى ما أقول .

— ماذا تقولين يا بنت اللئام بعد أن فعلت فعلتك ؟

— ألست تريد المال ؟

— بلى ، فقد ذهبت دية قريح بمالى .

— إنى آتيك به .

— من أين ؟

— أعطنى جوادا وسيفا ودرعا .

— وماذا تصنعين ؟

— والله لآتينك بأضعاف ما غرمت من أجلى . .

— ٨ —

تلثمت فاطمة وتعممت ، وتقلدت السيف والرمح ،وركبت الجواد ، وسارت ومن ورائها أخوها فى الرضاع « مرزوق » كأى فارس من فرسان العرب يسير وراءه تابعه ، حتى أشرفت على أرض خضراء نضرة ترعى بها إبل وخيل وغنم كثيرة فى حراسة رعيان وعبيد .

حملت فاطمة على الرعيان ، وصاحت بهم أن يسوقوا المواشى أمامها فقال لها أحــدهم :

— ياغلام ، أتدرى لمن هذه الأموال ؟ إنك تعرض نفسك للهلاك .. هذه أموال ضرغام السعدى .. البلاء الذى لا يدفع والقضاء الذى لا يرد .. فدعها وامض فى سبيلك ، حتى لا يلحق بك ويرديك .

فضربته ضربة أفقدته وعيه وأرعبت الباقين ، فانصاعوا لها صاغرين ، وساقوا أمامها الابل والخيل والغنم .

وبينما هى سائرة ، والرعاة يتقدمونها بما يسوقونه ، سمعت من خلفها صرخة مدوية ، فالتفتت فرأت فارسا يجد فى أثرها يكاد يحجبه الغبار عن الأنظار .. فعلمت أنه ضرغام صاحب الأموال فعطفت نحوه واستعدت لملاقاته .

قال لها باستهانة :

— ياغلام .. لقد قدمت على أمر عظيم .. دع عنك الطمع ورد ما أخذته ، وإنى أهب لك حياتك .

فلم ترد عليه ، بل قصدت اليه وعاجلته بطعنة فى صدره نفذت إلى ظهره ، وتركته صريعا ، وسارت تأخذ مافى طريقها من أموال ، حتى وصلت إلى ديار بنى طى .

واستقبلها الحارث فرحا بالأموال ، وقد قالت له :

— يامولاى ، لقد أخذ منك ألف ناقة ، وهذه أربعة آلاف من الإبل والخيل والغنم ومعها العبيد والإماء .

وصارت بعد ذلك تهجم على القبائل فتقاتل الرجال ، وتأخذ الأموال ، فاذا ما عادت بالأسلاب أعطت لسيدها النصف وأبقت النصف الآخر لنفسها ، حتى كثرت أموالها وأغنت الحارث ووقعت هيبتها فى نفسه ، وتركها تفعل ماتشاء ، فضربت المضارب والقباب ، وأقامت الولائم ، وأعطت الهدايا ، والتف حولها كثير من رجال بنى طى وفرسانهم وصاروا يركبون لركوبها ، ويخرجون معها للغارات والغزوات ، ولقبوها بذات الهمة .. وانتشرت أخبارها بين العرب ، وصار الناس يرهبونها ويخشون بأسها ، وقد أطلقوا عليها « داهية بنى طى » .

— ٩ —

قالت فاطمة لأم مرزوق التى لاتعرف لها أما غيرها :

— يا أمى ، هلا حدثتنى عن القوم الذين كنت تعيشين معهم قبل أن تنتقلى إلى بنى طى ؟ فتنهدت أم مرزوق ، وسكتت برهة وهمت أن تفضى اليها بسر مولدها وما ثار حوله، ولكنها خشيت أن يحملها ذلك على خوض معارك تفسد عليها حياتها، فعولت على أن ترجئ ذلك عسى أن يجئ الوقت المناسب له .

وقالت فاطمة :

— لماذا لاتتكلمين يا أمى ؟

— إنى أتذكر ما مضى ياحبيبتى .

— هيه .. هل تذكرت ؟

— نعم يابنية ..لقد كنا فى بنى كلاب.. ألا تذكرين شيئا عن طفولتك هناك ؟

— لا أكاد أذكر شيئا .

ولما رأت « أمها » لاتزال ممسكة عن الحديث سألتها لتثير ذكرياتها :

— من أمير بنى كلاب يا أماه ؟

— لهم أميران يتنازعان .. مرة يتفقان ، ومرة يختصمان .. أحدهما ظالم والآخر مظلوم .

— وهل هم قوم أشداء ذوو بأس ؟

— نعم يابنية ..

— فكيف إذن تمكن منهم بنو طى ؟

— ما أضعفهم إلا الشقاق فيما بينهم .. لقد كان بنو كلاب على عهد الصحصاح أعز الناس جميعا .

— حدثينى عن الصحصاح ، فانى أسمع عنه ، وأحب المزيد من خبره .

— كان الصحصاح رجلا ولا كل الرجال .

وراحت أم مرزوق تحكى لفاطمة أطرافا من فعال الصحصاح وصفاته ، وكيف نشأ يتيما ، وكيف كافح حتى صار له شأن عظيم ، فجمع كلمة العرب وقضى على مابينهم من خلاف ، وكيف سار بهم إلى بلاد الروم فحارب ملوكها وانتصر عليهم وعاد كملك عظيم ، حتى وافته المنية .

واسترعى انتباه فاطمة بصفة خاصة عزوف الصحصاح عن مهاجمة الآمنين فى ديارهم وعن النهب والسلب ، برغم حاجته الى المال ليدفع مهر ابنة عمه ليلى ، وتوجيه همته وشجاعته الى نصر المظلوم وأخذ حق الضعيف من القوى الغاشم .

استرسلت أم مرزوق فى الحديث عن الصحصاح ، ولم يخل كلامها من المبالغات التى يحلو للناس فى أحاديثهم عن الأبطال أن يضيفوها الى الوقائع . وأفاضت فى وصف ماجلبه من بلاد الروم من جواهر وطرائف وأشياء لايعرفها العرب فى البادية . على حين سرحت فاطمة فى خاطرها بعيدة عن الغنى والترف..لقد اضطرت فى أول الأمر أن ترضى سيدها « الحارث » وتعوضه عن ماله الذى فقده بسببها ، فأغارت على الأموال وسلبتها ، ثم تمادت مدفوعة إلى تحقيق وجودها كانسان له كيان أو يجب أن يكون له كيان غير الوضع المهين الذى هو فيه .. ولم تجد لشجاعتها وقوة بأسها مجالا غير الطريق الذى سلكته .. غير أن تغير على القبائل وتسوق إبلها وخيلها وتقتل رجالها .

بكت فاطمة . . ودهشت أم مرزوق جزعة من بكائها ، فحاولت أن تسرى عنها ، وجعلت تسألها عن سبب بكائها :

— لماذا تبكين يا حبيبتى ؟

— ويلى مما فعلت يا أماه . .

ومسحت دموعها وهى تقول :

— لا ، لن أعود إلى غارات النهب والسلب .

— وماذا فعلت يا بنيتى غير ما يفعله الفرسان ؟

— لا يا أماه . . هذا شأن الصعاليك . . ماذا أقول لربى يوم الحساب ؟

وسكتت تفكر ، ثم قالت كأنها تحدث نفسها :

— إن الفرسان الشرفاء يذهبون إلى الجهاد والقتال فى سبيل الله ، فإن قتلوا كانوا شهداء . . أما أنا إن قتلت فى مغامرة من هذه المغامرات فسأقتل فى سبيل ناقة أو جمل . .

وأجهشت ، وانخرطت فى بكاء حار ...

اعتزلت ذات الهمة فى مضربها تصلى ، وتقوم الليل وتطلب من الله أن يغفر لها .

وذات يوم دخل عليها أخوها « مرزوق » وقال لها :

— يا ذات الهمة ، إن وجوه بنى طى ومعهم مولاى الحارث قد أقبلوا يقصدونك .

— وماذا يريدون ؟

— يبدو أن هناك أمرا مهما جاءوا من أجله .

— أنا لا أريد أن أقابل أحدا ، فقد نذرت نفسى لعبادة الرحمن .

— ما عليك بأس أن تقابليهم وتسمعى ما يقولون .

— لا بأس ، وهيا اذبح لهم ، وأعد وليمة لعشائهم .

استقبلت ذات الهمة وفد بنى طى ، ورحبت بهم وأكرمتهم ، ثم أقبلت عليهم تقول :

— يا سادات بنى طى ، هل من حاجة فتقضى ؟

قال مولاها الحارث :

— يا بنية ، إن بيننا وبين بنى كلاب عداوات ، وفى قلوبنا منهم نيران

لا تطفأ ، فقد قتلوا سادتنا وأبادوا أبطالنا ، واليوم علمنا أنهم أعدوا العدة للهجوم علينا وقتالنا ، ولا نريد أن نقعد حتى يأتوا الى ديارنا ، وقد سمح لنا الزمان بك وصار لنا الفخر بفعالك .

— وماذا أكون أنا منكم حتى تفخروا بى ؟

قال واحد من القوم :

— أنت « داهية بنى طى » كما يلقبك العرب . وقد صرت اليوم من حماتنا ..

قالت بصوت خافض حزين :

— داهية بنى طى ماهى الا أمة من إماء بنى طى .. وكيف تكون الأمة من الحماة .. ؟

سكت القوم لا يدرون بماذا يجيبون ، ثم قطع الحارث السكوت :

— أشهدكم على يابنى عمى أن أمتى فاطمة قد أصبحت منذ اليوم حرة ..

تهلل القوم ، وانطلقت من أفواههم عبارات الاستحسان ، فمن قائل :

— حياك الله ياحارث ..

وقائل :

— ذات الهمة لا تكون الا حرة .

وقائل :

— داهية بنى طى فخر بنى طى .

ولم تشعر ذات الهمة بمثل ما شعرت به فى هذه اللحظة من الفرح الذى هز كيانها وبعث فى نفسها نشوة لم تعرفها من قبل ، هى نشوة الحرية التى نزعت من قلبها شوكة كانت دائما تخزها وتؤرقها ..

وقفت أمام القوم باسمة ، وقالت فى حماسة :

— أما والله لو ملكت الكواكب ما أعد نفسى قد ملكت شيئا أعزمما ملكت اليوم .. يابنى طى إنى لكم ناصرة ، والى أعدائكم سائرة .. وسوف ترون منذ اليوم فعلى وما أصنع ببنى كلاب وما أنزل عليهم من العذاب . .

— ١١ —

تقلدت ذات الهمة عدة قتالها ، وركبت جوادها ونادت فى رجالها:

— الى بنى كلاب ..

ولما وصلت الى مشارف الحى هجمت على من لقيت هناك من الرجال ، وأوقعت بهم ، ونظرت الى ألف ناقة حمراء الوبر ، نامية الجسم ، كثيرة اللحم ، وكان من عجيب القدر أن تلك النياق من أموال أبيها « مظلوم » .. وقالت لرجالها :

— دونكم هذه الغنيمة ..

ولوت عنان جوادها راجعة ، وساق الرجال النياق أمامها .. وعادوا الى الديار آمنين ، على حين كان مظلوم فى خبائه لا يدرى بما حدث ، ثم راعه أن رأى الرعاة مقبلين فى فزع ، فهب صائحا فيهم :

— ياويلكم .. ماوراءكم ؟ ومن بشره رماكم ؟

قالوا :

— ساقت أموالك داهية بنى طى ..

نادى مظلوم فى رجاله فلبوا مثل الأسود الضارية ، وسار بهم فى أثر ذات الهمة حتى لحقوا بها .. وصاح بها مظلوم :

— يامخذولة .. خاب أملك ، وسدت سبلك ، وساقك الحبل الى مصرعك لن تظلك بعد اليوم سماء ، ولن تقلك أرض ..

ما إن سمعت كلامه حتى لعبت بالرمح فى يدها ، و نادت أخاها مرزوق :

— ويحك يا ابن أمى .. قم ورائى ، واحم ظهرى ..

وقالت لرجالها :

— تقدموا أنتم بالابل ، واحفظوا الأموال ..

وقصدت الى القوم ، ورأت « أباها » يقودهم ، فطلبت قتاله ، فبرز اليها،وحمل عليها .. واشتبك الاثنان فى الضرب والطعان ، وهم مظلوم أن ينقض عليها ، ولكنه أحس نحوها بالشفقة وشعر بالفتور عن قتالها .. فصارت تلعب به وتدور فى الميدان حتى لحظت منه غفلة ، فهجمت عليه ، وأمسكت بيديه ، فوقع منه السيف ، فأطبقت عليه واقتلعته من سرجه ، وألقته على الأرض .. وأخذته أسيرا مشدودا على ظهر جواده ، وحمل عليها بنو كلاب يريدون تخليص قائدهم منها ، ولكنها أسلمته الى مرزوق ، وعادت اليهم ، وانضم اليها رجالها ، والتحم الفرسان بالفرسان ، وجالت ذات الهمة فى الميدان ، وراحت تضرب بالسيف والسنان ، حتى هابها الشجعان ، فولوا أمامها مدبرين ، ورجع بنو كلاب الى ديارهم منهزمين .

وعادت ذات الهمة ورجالها من بنى طى الى حيهم ، فخرج الناس لاستقبالهم،وقد فرح الجميع بأسر مظلوم ، وأمرت ذات الهمة بانزاله فى خيمة ، وناطت حراسته بأخيها مرزوق ومعه بعض الرجال .

○ ○ ○

كان كل من فى بنى طى فرحا بأسر « مظلوم » منتظرا أن يتم سروره بقتله أخذا بثأر القبيلة من بنى كلاب .. ما عدا سعدى ... (أم مرزوق) اذ كانت الوحيدة التى ينطوى قلبها على السر الخطير .. كما ينطوى على محبة سيدها القديم .. الذى عهدت

فيه كل الصفات الطيبة .. وقد حزنت أشد الحزن إذ رأته فى الوثاق ينتظر حتفه .. وعجبت كيف استطاعت « فاطمة » أن تصل اليه مع ماهو عليه من شدة البأس وقوة المراس وقالت فى نفسها : والله لو علمت أنه أبوها لعز عليها ومارضيت له هذا الهوان .

فكرت سعدى فى الأمر، وقالت إن لم أعرفها أنه أبوها فانه هالك لا محالة ، وبكت ، ثم قصدت الى ذات الهمة ، فلما رأتها باكية العينين قالت لها :

— يا أماه، ما أبكاك ؟

— يا بنيتى ، أما تعرفين هذا الرجل الذى أسرته ؟

— وكيف لا أعرفه ؟ إنه مظلوم بن الصحصاح بن جندبة الكلابى ..

— نعم يا بنية ، ولكنك لا تعرفين أنه ..

وسكتت سعدى ، إذ غلبتها الدموع ، فقالت ذات الهمة :

— إنك تخفين عنى أمرا يا أماه .. قولى ماذا هو ..

— إنه أقرب الناس اليك ..

— عجبا .. ماذا يكون منى ؟

— إنه أبوك يا بنية ..

— أبى .. كيف ذلك .. ؟ هل تعنين حقا ما تقولين ؟

— نعم ، وأنت ابنته .. من صلبه ..

ولما أفاقت ذات الهمة من المفاجأة ، قالت :

— صدقت يا أماه ..

— وكيف علمت أنني صادقة ؟

— كنت كلما هممت أن أضربه يخفق قلبي من الاشفاق ، وترتخي يدي ، وقد بان لي منه مثل ذلك ..

ثم رفعت صوتها قائلة ..

— والآن أخبريني وأوضحي لي الحقيقة .

فحكت لها سعدى كل ماجرى بشأنها من أوله إلى آخره . وظلت ذات الهمة تصغى اليها وتعى كل ماتقوله ، حتى إذا ما فرغت من حديثها قامت ساكتة خاشعة وسجدت لله شكرا .. ثم قالت لسعدى :

— هيا بنا اليه ..

ودخلتا عليه ، وقصدت ذات الهمة إلى أبيها مظلوم ، وحلت وثاقه ، وقبلت يده ، وهو مبغوت مندهش .. فقال لها :

— بم استوجبت منك ذلك .. ؟

— استوجبته بالشرع والدين ، وإنى ألتمس رضا رب العالمين .

فزادت دهشته ، ونظر اليها مستطلعا .. فقالت لسعدى :

— أخبريه بمكانى منه ولا تكتمي عنه شيئا .

وكانت سعدى ملثمة ، فكشفت اللثام عن وجهها ، فتأملها مظلوم ، ثم قال لها :

— أأنت سعدى ؟؟

— نعم ، وهذه ابنتك فاطمة ..

— ابنتى فاطمة .. ؟؟

— نعم ياسيدى ، وفخرها موصول بفخرك ..

وقصت عليه ماحدث .. فبكى من الفرح وهو يقول بصوت خافض : سبحانك ربى .. بالأمس كرهت ولادتها ، واليوم .. ما أشد فرحتى بها ، ثم اتجه إلى ابنته وقال لهـا :

— سامحينى يابنية .

وضمها إلى صدره ، وجعل يقبلها بين عينيها ودموع الفرح تنهمر من عينيه .

— ١٢ —

قدمت ذات الهمة لأبيها مظلوم درعه وعدة قتاله ، وأعدت هى أيضا عدتها وسلاحها ، ونادت أخاها مرزوقا ومن معه من الأتباع ، وأمرتهم أن يحملوا الأموال والأمتعة على الجمال ، وأن يعد الفرسان مثلهم عدتهم ويركبوا خيولهم ، وأعدت لأبيها خير الجياد ، وركبت جوادها وتحرك الركب ليلا نحو ديار بنى كلاب

فلما أصبح الصباح ظلوا سائرين حتى حميت الشمس ، فنزلوا وضربوا الخيام ، كى يستريحوا .. وما كادوا يفعلون حتى رأوا غبارا يسد الأفق البعيد ، ولمحوا من خلال الغبار نواصى الخيل وهى تعدو نحوهم ..

قالت لأبيها :

— يا أبت ، لقد أدركتنا الخيل .. صعب على بنى طى خلاصك من أيديهم ،

— ليس لنا إلا أن نلقاهم بالسيف ..

وهم أن يلبس درعه ويستعد لملاقاة الأعداء ، ولكنها قالت له :

— لا يا أبت .. ابق أنت مع الأموال والرجال ، وأنا ذاهبة إلى لقائهم .

— كيف أدعك يابنية تذهبين اليهم وحدك ؟

— لاتخف على يا أبى ، إنهم يعدوننى منهم ، وسأخاطبهم بلين الكلام لما لهم على من الحقوق ، فان رجعوا فهو المراد ، وإن أبوا أذقتهم عواقب البغى وحملتهم على العودة مكرهين .

ولكزت جوادها ، فطار بها نحو القوم .. فلما رآها الحارث بن شريك — سيدها سابقا — جذب عنان جواده فوقف وقال : يا آل طي قفوا .. إن الداهية قادمة علينا .

تطاولت الأعناق ، وشخصت الأبصار من الأحداق ، حتى قربت منهم ذات الهمة وألقت عليهم السلام ، وقالت :

— ياوجوه العرب ، عندى كلام ، فهل أنتم سامعون ومنصفون !

قال الحارث :

— قولى ما عندك ياداهية .. نحن سكوت ..

أعلموا أن الله تبارك وتعالى ، يسوق الأقدار الى العباد ، وله فى خلقه تدبير ، وهو على كل شيء قدير ..

وسكتت لحظة ، وتابعت قولها ·

— لقد عرفتمونى وما عرفتمونى !

فتعالت الأصوات ... تبين واحد منها يقول :

— كيف عرفناك وكيف ما عرفناك !

وقال الحارث بن شريك :

— أوضحى ياذات الهمة .

— عرفتمونى جارية فى حيكم ، ولكنكم لم تعرفوا حقيقة أمرى .. والآن أقدم اليكم نفسى .. أنا فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح أمير بنى كلاب ..

وقصت عليهم قصتها باختصار ، حتى قالت :

— .. ومن مظلوم خرجت ، وإليه رجعت ، فهل أخطأت ؟

قالت بعض الأصوات :

— كلا ، عداك العيب ..

وزام آخرون ..

قالت :

— يا بنى طى ، إنى لحربكم كارهة ، فقد ربيت بينكم ، ونشأت بأرضكم .

قال الحارث بن شريك :

— والله لقد أحسنت فيما قلت ، كما أحسنت فى كل ما فعلت ، ولقد كنت أشاهد منك كبار الأفعال فاقول والله ماهذه أفعال العبيد ، وما هى إلا بنت سيد مجيد .

ثم نادى فى قومه :

— يا بنى طى ، أرجعوا عن ذات الهمة ، ودعوها تذهب الى حالها .

فلوى الفرسان أعنة الجياد يبغون الرجوع ، ماعدا فارسا واحدا ثبت فى عناد يقول :

— إن رجعنا بلا قتال حل بنا العار .. كيف يقال إن بنى طى عجزوا عن ذات خمار وربة حجال كانت ترعى الجمال فى القفار ؟

فنظرت اليه ذات الهمة وقالت فى استهانة :

— من الفارس المناجز ؟

— أنا طعان بن فاتك .. الذى سيسقيك اليوم كأس المهالك ..

قال ذلك وهجم عليها كأنه الليث الغاضب ، فانقضت عليه انقضاض الباشق وتبادلا الضرب والطعن ، ثم عاجلته بضربة فى صدره ، نفذت الى قلبه ، فوقع يلطم الأرض بيديه ويفحصها برجليه .

— ١٣ —

دخل مظلوم بيته ، ومعه ابنته فاطمة (ذات الهمة) وكانت على عادتها منذ أن قتلت « قريح بن قابوس » وخرجت للغزوات — تلبس ملابس الرجال وتبدو فى زى فتى من الفتيان ، ورأتهما «سلام» أمها ، فأرادت أن تحتجب ظنا منها أن فاطمة شاب غريب .. فتبسم مظلوم وقال لها :

— تعالى ياسلام .. لا تحتجبي .. أما تعرفين من هذه ؟

— هذه .. من هذه .. ؟ أتقصد هذا الفتى ؟

— ليست فتى .. أنها ابنتك فاطمة . !

ونادى « سعدى » :

— أقبلى ياسعدى ، وقولى لها ..

ومن كلمات سعدى عرفت سلام حقيقة الفتاة الماثلة أمامها فى زى الرجال .. فارتمت عليها تقبلها وتبكى من الفرح .

ولما استقر بهم الجلوس قال مظلوم لزوجته :

— ما أخبار الحى ؟

قالوا إن « داهية بنى طى » أسرتك .. وقد فرح أخوك ظالم ، وأولم الولائم وقال الحمد لله الذى كفانا أمر مظلوم ، فسيعلم بنو طى أنه ابن الصحصاح ، ولن يعود بعد هذا إلينا .

— لا كان أخي .. ولكن دعينا من هذا فهي « شنشنة أعرفها من أخزم »، اتعرفين من « داهية بنى طى » ؟

— سمعت عنها فى الحى .. سمعت الناس يصفونها بأنها أشجع الشجعان وقتالة الفرسان .

قال مظلوم وهو يشير الى فاطمة مبتسما سعيدا .. :

— هذه هى ..

قالت سلام مشدوهة فرحة :

— ابنتى فاطمة هى داهية بنى طى ؟

— إنها منذ اليوم داهية بنى كلاب ...

— الداهية التى تنزل على ظالم وعلى ابنه الحارث .

قالت سعدى :

— الحارث .. أهو الذى ولد يوم ولادة فاطمة ؟

— نعم هو ، وقد صار أظلم من أبيه وأكثر طغيانا ..

* * *

وشاع النبأ فى حى بنى كلاب ، وصار الواحد يلقى الآخر فيقول له : لقد عاد مظلوم من أسر بنى طى .. أتدرى من معه ؟ داهية بنى طى..فيقول الآخر متعجبا:

— داهية بنى طى التى أسرته ؟

— نعم ، إنها ابنته .

ويدخل فى الحديث رجل ثالث قائلا فى عجب :

— ماذا تقول ؟ داهية بنى طى هى ابنة مظلوم .؟!

ويحكون حكاية ولادتها وإخفاء أمرها وأسرها طفلة مع الجارية سعدى...

* * *

ودخل جماعة من مشايخ العشيرة على ظالم ، وقالوا له :

— قم واستقبل أخاك وهنئه بالسلامة .

فقال مأخوذا منكراً :

— ما هذا الكلام ؟

ويقول واحد من المشايخ :

— لقد عاد ومعه أموال كثيرة .

ويقول آخر :

— ومعه ابنته .

ويقول ظالم :

— الآن عرفت أنكم لا تجدون .. فليس لأخي بنت .

— إنها داهية بني طي ..

ويحكي له الحكاية ..

ويقول ظالم :

— ما زالت عن قلبي الهموم ..

ويقبل ولده الحارث وقد علم بالأمر ، وسمع قول أبيه ، فيقول له :

— لا تحمل هما يا أبي ، فإن شئت قتلته وقتلت ابنته .

ولكن ظالم لا يلتفت إلى كلام ابنه ، ويتجه إلى مشايخ العشيرة طالبا منهم الرأي ، وكيف يعتذر لأخيه عما كان من إظهاره الفرح في غيبته ، فيشيرون عليه

بأن يذهب إليه ، ويقول رجل منهم : إن أخاك مظلوما سمح طيب القلب ، وكلمة طيبة منك تذهب مابنفسه .

* * *

قال مظلوم لأخيه ظالم :

— ويحك ياأخي .. فرحت لمصابى ، وأظهرت السرور لما توقعت من هلاكى ..

— والله يا أخي إننى ما فعلت ذلك الا لأسكن قلوب الناس وأزيل عنهم الترح واليأس ، ولأنى أعلم أن بنى طى لا تقدر على قتلك ووراءك مثلى ومثل ولدى الحارث وسائر رجال بنى كلاب ، وما كان قعودى عنك الا ريثما أعلم مكانك ، فأبادر إلى إنقاذك .

وتغامز الحاضرون ، وقال أحدهم لجاره فى همس : والله إنه لكاذب ..

وقال مظلوم :

— مازلت تغضب الله فى أمرى ، وأنا أطيعه فيك ، وقد قبلت عذرك وسامحتك ..

وانفض المجلس ، ولم يبق الا ظالم وابنه الحارث وكان هذا يصحب أباه للسلام على عمه ، وقال ظالم :

— يا أخي ، إننا نريد أن نرى ابنتك فاطمة ونسلم عليها .

فقام مظلوم ودخل على ابنته وقال لها :

— إن عمك وولده يشتهيان أن يرياك ، فهلا خرجت إليهما وسلمت عليهما ؟

— سمعا وطاعة ، ها أنا ذى ماضية إليهما ، ولو أن ما سمعته عنهما لا يرغب فى رؤيتهما .

— إنهما على أى حال من أهلنا ، والعم بمنزلة الوالد .

دخلت ذات الهمة على عمها وولده الحارث ، وحيتهما ، فوثب إليها ظالم وقبل رأسها وما بين عينيها ، وكذلك تقدم الحارث وسلم عليها ، وجلست خافضة الرأس وقد أسبلت اللثام على وجهها ، فقال لها ظالم :

— قد حضرت ، ولكنك عنا غائبة .. أسفري يا ابنة أخي واكشفي اللثام عن وجهك ، فأنا عمك ، وهذا الحارث أخوك .

فحسرت اللثام عن وجه مشرق وجبين أبلج وخد مضرج .

فقال العم :

— ما شاء الله كان .. سبحان الخالق !

فابتسمت، فبدت أسنانها كاللؤلؤ المنضود، ونظرت إلى الحارث، فأحس بالسهام تسدد إليه وتخترق فؤاده ..

وبعد حديث قصير نهضت ذات الهمة ودخلت إلى أمها ، ثم استأذن العم وهو يستنهض ولده ، فقام هذا متثاقلا وهو يود ألا يبرح الدار .

— ١٤ —

قالت عصام « زوجة ظالم » لولدها الحارث :

— مالى أراك واجما شاردا على غير عادتك ؟ مابك يابنى ؟

— لا شىء ..

— كيف لا شىء .. إن بك شيئا تخفيه .. إنك لا تطلب الطعام، وإذا دعيت إليه لا تصيب منه إلا قليلا ، وإذا تحدث إليك أحد فانك تكاد لا تعى القول ..

— هه .. ماذا تقولين يا أمى ؟

— هذا عين ما أقول .. فأنت معى ولست معى .. هذا حالك منذ عدت من عند عمك مظلوم لا يسترعى انتباهك غير ذكر ابنته ..

— نعم يا أمى . ولا أخفى عليك .

— هل أعجبتك ؟

— إنها فاتنة ساحرة .

— أتحب أن تتزوجها ؟

— ولم لا ؟ أليست بنت عمى ؟ أو لست لها كفئا ؟

— بل ينبغى أن يقال : هل هى كفء لك ؟

— حبذا لو كلمت أبى ليذهب إلى عمى فيخطبها لى منه .

— سأفعل ، فطب نفسا وقر عينا .

وما فاتحت عصام زوجها فى هذا الأمر حتى قال لها :

— لقد خطر لى ذلك ، والحمد لله على أن جاءت الرغبة منه ، وإنى حريص على أن يتم هـذا الزواج لغرضين : الأول حسنها وجمالها ، والثانى أن مظلوم قد استطال بابنته وشجاعتها فاذا صارت للحارث انكسرت حدتها وقل نشاطها .

— نعم ما رايت يا أبا الحارث .

* * *

قال ظالم لأخيه مظلوم :

— يا أخى ، إن الله لم يعط ابنتك شيئا إلا وقد أعطى ولدى مثله من الحسن والفروسية والشجاعة . وإنى أسألك أن تجمع شملهما فى الحلال .

أطرق مظلوم قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

— يا أخى ، لو كان الأمر إلى لأجبت بالسمع والطاعة ، غير أنك تعلم أنه يتعلق بها ، فأنا أمضى إليها وأعرض عليها ما ذكرت ، وأعود إليك بالجواب .

استقبلت ذات الهمة أباها ضاحكة ، ولكنها ما كادت تسمع منه أن الحارث يخطبها حتى اتقدت عيناها وقالت :

— أقسم بالله تعالى لو واجهنى كسرى صاحب الايوان بهذا الكلام لكان سيفى أقرب إلى هامته من جوابى .. والله يا أبت مالى حاجة إلى بعل ، وما أريد عشيرا لى غير سيفى ودرعى وعدة جلادى ، ولن يكون خدرى الا جوادى ، ولن تتكحل عيناى بسوى الغبار فى المجال والمضمار ، ولئن راجعتنى فى هذا الأمر لأرحلن عن هذه الديار وأقيمن فى القفار .

— يابنيــة ، لك ما تشائين ، وأنا لا أحب إلا ما تحبين ، ولا أكره إلا ما تـكرهين .

وسكت ثم قال :

— يابنية ، هلا خرجت الى عمك وتحدثت معه وقلت له ماتريدين ..

— لا مانع ..

وخرجت ذات الهمة مع والدها الى فناء الخباء حيث يجلس عمها فى انتظار الجواب.

قال العم :

يابنية ، إن ولدى مشغول بك ، وقد جئت من أجل اجتماع شملكما ، ونريد أن نفرح بكما .

— قلت الجواب لأبى .

ونظر ظالم الى مظلوم مستطلعا ، فقال الثانى :

— إنها تأبى الزواج .

فقال ظالم لذات الهمة :

ماذا تنـكرين من الحارث ؟

— يا عمى ، والله ما رددت ولدك زهدا فيه ولا رغبة فى سواه . إنى ياعم قد تزوجت سيفى وما أريد بعلا آخر ..

— ما هذا الكلام ؟

قالت بلهجة قاطعة :

— ليس عندى غير ما سمعت .

فغضب ظالم وقال :

— ويلك ، ما تكرهين من ولدى وما أعطيت شيئا الا وقد أعطى مثله وأكثر .. إن كان المال فماله كثير ، وإن كان الجمال فهو أجمل منك ، وإن كانت الفروسية فهو أكثر فروسية وشجاعة .

— واعجباه ياعماه .. كأنى فاخرتك بالمال والجمال .. ومتى كانت العرب تفخر بحسن رجالها ؟ أما من حيث الفروسية والشجاعة فدع ولدك يبرز لى فى الميدان ، فان هو وصل الى وقدر على قبلت زواجه ، وكان ذلك مهرى .. وليمسك عليه ماله ..

كان ظالم يثق بشجاعة ولده ، ويوقن أنه سيتغلب عليها ، لهذا قال لها مسرورا :

— لقد نطقت بالصواب ، وأتيت بالامر الذى لا يعاب .. فعاهدينى على ما قلت كى تطمئن نفسى الى وعدك .

فوضعت يدها فى يده وعاهدته على الزواج من ولده إن غلبها فى المبارزة .

* * * *

برزت ذات الهمة إلى الميدان ورفعت صوتها كى تسمع القاصى والدانى :

— يامعشر بنى كلاب ، قد جعلتكم حكما بينى وبين ابن عمى الحارث بن ظالم ، فاشهدوا ما يجرى بيننا واحكموا بالحق ، وإنى أشهدكم على أنى جعلت وصوله الى وغلبته على المهر والصداق ، وليس لى عليه غير ما يقضى به هذا الاتفاق .

فهمهمت الأصوات بالاستحسان ، وتبين من بينها صوت يقول :

— والله لقد أنصفت من نفسك ، وما تعديت فى شرطك .

ثم برز الحارث متجها اليها بجواده ، فلما دنا منها قالت له :

— ياحارث ، هل سمعت ما قلت ؟

— نعم يا ابنة العم ورضيت به .

قال ذلك فى لهجة الواثق بنفسه ، المطمئن الى النتيجة التى يتوقعها ، فكيف تغلبه امرأة مهما كان شأنها .. وقال فى نفسه : نعم ياحارث جاءت الساعة التى تستطيع فيها أن تقهر هذه الفتاه المغرورة وتستولى عليها ، وهى ان كانت لم تعبأ بك وتبادلك الحب فسترى من شجاعتك وفروسيتك ما يغزو قلبها ويجعلها تهيم بك .. إنك ستأخذها أسيرة قتال ، ثم تصبح أسيرة حبك .

وصرخ بها صرخة الاسد الغاضب ، وهجم عليها ، ولكنها بحركة سريعة تفادت هجمته ، وجعلت تداوره حتى كلت قوته ، وطال بينهما النزال والصيال ، وتطلعت اليهما الأنظار ، وامتدت الأعناق ، واحتبست الأنفاس .. وفجأة صرخت فيه صرخة أدهشته وحيرته .. وحملت عليه بقوة مباغته ، وقد أدارت السيف ، وضربته بمقبضه على كتفه ضربة أوقعته على الأرض غائب الوعى .: وحمله أبوه ورجاله الى سرداقه وجعلوا يعالجونه حتى أفاق من غيبوبته ، ولكنه لم يفق من حب ذات الهمة .

— ١٥ —

قال الفقية « عقبة بن مصعب » لعبد الله بن مروان بن الهيثم شيخ بنى سليم :

— لقد انقرضت دولة بنى أمية ، وصارت الخلافة فى بنى العباس ، وقد كان والدك أميرا على عرب البادية ، ولكن عبد الملك بن مروان نقل الامارة من بنى سليم إلى بنى كلاب ، إذ عزل والدك وولى مكانه الصحصاح بن جندبة الكلابى . والرأى عندى أن تقصد إلى الخليفة المنصور وتسأله ولاية العرب .

— أترى بنى كلاب يسكتون على ذلك وهم يفخرون بالصحصاح وما كان من غزواته فى بلاد الروم وفتح القيسارية ؟

— إن بنى كلاب قد ذهبت ريحهم ، وقد كانت قوة الصحصاح فى أنه جمع شمل العرب ووحد كلمتهم ثم خلف من بعده ابناه ظالم ومظلوم ، فتنازعا على الامارة ، وتفرقت القبيلة وصارت شيعا وأحزابا .

* * *

نزل عبد الله بن مروان بن الهيثم بضاحية من ضواحى بغداد ومعه ألف فارس من قومه ووجوه عشيرته ، وأرسل يستأذن فى الدخول على المنصور ، فأمر المنصور باكرامهم ، وأذن لعبد الله فى الدخول عليه ، ثم استقبله وأجلسه إلى جانبه ، وقال عبد الله :

— يا أمير المؤمنين ، لقد جئت فى رهط من قومى للدخول فى طاعتك ، ونحن نحمد الله تعالى على أن أظلتنا راية الدولة العباسية ، وفرسان البادية طوع أمرك .

فقال المنصور :

— مرحبا بكم ، نزلتم أكرم منزل :

فشكره عبد الله ودعا له . ثم قال المنصور :

— لقد سمعت عن بنى كلاب عجيب الأخبار ، وذكر لى رجل صادق أنه ليس في العرب من هم أكثر عدداً ولا أشجع فى القتال .

— حقا يا أمير المؤمنين ، وما كذب من حدثك .

وشرح عبد الله للمنصور حال بنى كلاب وما صاروا اليه من التفرق والتمزق بسبب التنازع بين الأخوين ظالم ومظلوم .

وقال المنصور :

— لقد وليتك يا عبد الله أميرا على عرب البادية ، وعليك أن تحسن سياستهم وتجمع شملهم .

وسكت المنصور قليلا ثم أردف :

— وانى أحب أن أرسل إلى وجوه بنى كلاب وآمرهم بالدخول فى الطاعة .

— حسن يا أمير المؤمنين .

وكتب الخليفة إلى ظالم ومظلوم يأمرهما بالمسير اليه والقدوم عليه .

* * *

قال ظالم لحامل رسالة الخليفة :

— من أين هذا الكتاب ؟

— هذا كتاب المنصور أمير المؤمنين .

وفض الكتاب وقرأه ، وقال :

— ياشيخ ، ما الذى فعلناه للمنصور حتى يعزلنا عن الامارة ويعطيها لبنى سليم ؟ نعم كان والدنا محبا لبنى أمية ، وقد ذهب وذهبوا وصار الجميع فى القبور.. ارجع إلى صاحبك وقل له إن عرب البادية لا يدخلون فى طاعتك .. ومن جاء إلينا كانت سيوفنا فى لقائه .

وعلم مظلوم بما كان من أخيه مع رسول الخليفة ، فعظم ذلك عليه ، واجتمع بابنته « ذات الهمة » وقص عليها ما وقع ، فقالت ذات الهمة :

— والله لقد أخطأ عمى فيما فعل مع رسول أمير المؤمنين . وإنى ذاهبة اليه لأرده إلى الصواب .

وقصدت إلى عمها ، فأحسن استقبالها ، وبعد أن جلست واطمأنت فى مجلسها قالت :

— يا عماه ، لما كان الأمر لبنى أمية كنت فى طاعتهم ، ولما انتقل الأمر إلى أبناء عم رسول الله (العباس) تخرج عليهم وتعدل عن طريقهم ؟

— يابنية ، والله ماقعدت عن المنصور إلا لأن عبد الله بن مروان سبقنى اليه فأعطاه إمارة العرب .

— يا عماه ، لقد أرسل الينا يطلب السير إلية ، وهذا شرف من قبل خليفة رسول الله فعلينا أن نلبى دعوته و نقصد الى ساحته ، وعلينا كذلك أن نكون عونا له وأن نضع سيوفنا فى تأييد دولة الاسلام وقتال أعدائها كما فعل جدى الصحصاح.

فكر ظالم هنيهة ثم قال :

— الآن عاد الرسول الى منصور وأبلغه بما سمع ، ولا فائدة ، فان أرسل لنا ثانية سرنا اليه ، وإلا فليكن ما يكون .

• • •

وأما ما كان من أمر المنصور فانه ثار من الغيظ لما أبلغه الرسول إجابة ظالم ، وعزم على أن يسير اليه جيشا يخضعه ، ولكن عبد الله بن مروان قال له :

— مهلا يا أمير المؤمنين ، أنا أسير اليهم وأسوقهم اليك طائعين ، ولكن أريد لهم الهدايا والأموال لتؤلف قلوبهم بها .

فاستحسن المنصور ذلك وقال لعبد الله بن مروان :

— اطلب لهم ماشئت من الخزائن وعجل ..

• • •

تجهز عبد الله بن مروان للمسير الى أرض بنى كلاب محملا بالهدايا ، وسار يقطع القفار الى أن قارب القوم ، فأنفذ اليهم يعلمهم بقدومه ، فركبوا لمقابلته ، واستقبلوه بالاكرام والترحيب . ورأى عبد الله فى أوائل القوم فارسا بهى الطلعة يجد نحوه ويدنو منه قائلا بصوت رقيق نافذ :

— أهلا بك يا أمير ..

— حياك الله ، من تكون أيها الفارس ؟

— أنا ذات الهمة بنت مظلوم .

وكانت على عادتها فى زى الفرسان من الرجال . فقال عبد الله :

— أهلا وسهلا يا ذات الهمة يا أميرة الفرسان .. لقد علمت أخبارك وكنت مشوقا الى رؤيتك .

ولما استقر بهم القرار ، وزع عليهم عبد الله الهدايا وخلع عليهم الخلع ، قائلا لهم : إنها من أمير المؤمنين ، ولما علم أن ذات الهمة هى التى أثنت عمها ظالم عن عناده ، وأقنعته بطاعة الخليفة وبالمسير اليه فى فرسان بنى كلاب للبيعة وتقديم الولاء — أثنى عليها وخصها بالهدايا النفيسة .

* * *

دقت الطبول ، ونودى فى أحياء العرب بالسير الى العراق تلبية لدعوة أمير المؤمنين المنصور . وتجمع نحو خمسة آلاف فارس ، تقدمهم عبد الله بن مروان وظالم ومظلوم وذات الهمة وظلوا سائرين حتى وصلوا الى الكوفة ، فاستقبلهم واليها وأكرمهم ، وأرسل الى الخليفة يعلمه بنبأ وصولهم وأنهم قاصدون اليه ، فسر الخليفة بهذا النبأ وكان يخشى ألا يستجيب له بنو كلاب .

وضربت لهم الخيام والسرادقات خارج البلد ، فنزلوا بها وربطوا خيولهم الى أوتادها ، وأبدت ذات الهمة رغبتها فى دخول الكوفة ، وركبت جوادها وصحبها بعض القوم ، ندخلت المدينة وقصدت الى مسجد الامام على بن أبى طالب خاشعة ، ثم جالت بين الدور والقصور وهى تعجب مما ترى من الأبنية ، ولم تكن قد رأت من قبل مثل هذا العمران .

وبعد أن قضوا فى ضيافة صاحب الكوفة ثلاثة أيام ركبوا الى بغداد ، وأمر المنصور كبار رجال الدولة أن يستقبلوهم ، كما أمر أن تضرب لهم السرادقات والمضارب كى ينزلوا بها ، إذ علم أنهم لا يحبون الاقامة بالقصور والدور المبنية .

ودخل عبد الله بن مروان على المنصور ، وأنبأه بوصول القوم ، وشرح له حالهم وما وقع ، وحدثه عن ذات الهمة وما كان لها من الأثر فى إقناع عمها .. الخ .

وفى الصباح ركبت ذات الهمة وأبوها مظلوم وعمها ظالم وولده الحارث وآخرون

من وجوه بنى كلاب وفرسانهم ، وقصدوا فى صحبة عبد الله بن مروان الى دار الخلافة حيث كان المنصور فى انتظارهم وقد أذن بمقابلتهم .

استقبلهم المنصور أحسن استقبال ومنحهم المنح والهدايا ، وتبسط معهم فى الحديث ، وسمح لهم بما لا يسمح به لغيرهم فى حضرته ، وخص ذات الهمة بعنايته وإكرامه ، وأعرب لها عن سروره برؤيتها بعد أن سمع عنها ما سمع . وقالت له ذات الهمة :

— يا أمير المؤمنين ، نحن عرب البادية قد جرى الأمر فيما بيننا على الغارات والنهب والسلب والقتال من أجل المراعى والجمال ، وكان جدى الصحصاح قد قضى على هذه العادات ، ووحد كلمة العرب ، ووجه سيوفهم إلى أعداء العرب والمسلمين ، وصد جيوش الروم عن بلاد الاسلام ، وهزم أبطالهم وفتح بلادهم .

وتدخل (عبدالله بن مروان) فى الحديث ، فأيد كلام ذات الهمة ، ولم يفته أن يشير إلى دور أبيه مروان بن الهيثم فى مؤازرة الصحصاح ، وخروجه معه هو وأبطال بنى سليم إلى بلاد الروم .

ثم قالت ذات الهمة :

— وقد نشأت على عادة البدو فى السلب والنهب والقتل والقتال لأتفه الأسباب ، ولكنى تأملت فى ذلك فوجدتها أمورا سيئة ، وكيف نعود إلى عادات الجاهلية وقد أكرمنا الله بالاسلام ، ولما علمت بنسبى إلى بنى كلاب ، وسمعت أخبار جدى الصحصاح ، وما كان منه وما كان عليه من محاسن الصفات والشمائل ، زاد اقتناعى بسوء ما فعلت مجاراة للقوم ، وتبينت أن الطريق الذى سلكه الصحصاح فى تأييد الدولة الاسلامية هو الطريق الذى يجدر بنا أن نسلكه .

وهنا قال أحد الحاضرين من حاشية الخليفة :

كان الصحصاح من سيوف بنى أمية ..

فغضبت ذات الهمة وعلا صوتها وهى تقول :

— لا ياهذا .. لقد كان الصحصاح من سيوف العروبة والاسلام ، ولم يكن عبد الملك بن مروان فى عهده الا مجرد أمير للمؤمنين ..

وحسم الخليفة الحديث بقوله :

— أحسنت القول أيتها الفارسة الشجاعة ، وقد صدق من لقبك بذات الهمة .

وخرج القوم من عند المنصور فرحين بما لقوا من إكرام المنصور ، ومسرورين بما أفاض عليهم من المنح والهدايا .. ولكن رجلا واحدا منهم كان له شأن آخر .. كان يلحظ ذات الهمة ويسمعها وقلبه يشتعل .. ذلك هو الحارث بن ظالم ..

— ١٦ —

نام كل من فى الخيام ماعدا الحارث ، وكان أبوه ظالم يلحظه من طرف خفى قلقا عليه ، فما إن يغفو حتى تذهب غفوته مع زفرة من زفرات ولده المكلوم الفؤاد .. وكان يحز فى نفسه — إلى جانب ما يعانيه ولده — أن تتأبى عليه ابنة مظلوم ولا تعبأ به ، وأكثر من هذا تكريم الخليفة لها ورفعه شأنها ، ومعنى هذا أنها أصبحت مقدمة عليه ، وهو سيد بنى كلاب ، يأبى أن ينازعه فى السيادة أخوه مظلوم ..

التف ظالم بردائه وخرج من الخيمة إلى حيث يجلس ولده أمامها يحملق فى النجوم .. واقترب منه :

— ما بك يا حارث ؟

— لا شىء يا أبى ..

— لماذا لم تنم إذن ؟

— لا أجد النوم .

— دعها يا ولدى ، ولا تهلك نفسك من أجلها ..

— لا أستطيع يا أبى ..

وسكت ظالم هنيهة ثم قال :

— يا بنى ، قد بان لى وجه يجمع الله به شملك وتبلغ منه أملك ..

فقال الحارث ملهوفا :

— ومن لى بذلك يا أبت ..؟

— نقصد الأمير عبدالله ، ونطلعه على ما تجده من الوجـد ، ونسأله مساعدتك ..

* * *

كان عبد الله بن مروان يعلم حكاية غرام الحارث بذات الهمة ورفضها له ، فقد شاعت هذه الحـكاية بين العرب وتحدث بها الجميع حتى صارت مما يتسامر به القوم فى أمسياتهم . ولما قصد اليه الحارث مع أبيه ظالم ، وطلبا منه المساعدة ، ورأى حال الحارث وما هو عليه من الـكآبة والأسى ، قال له :

— طب نفسا وقر عينا ، فإنى سأحدث أمير المؤمنين بحديثك .

فأمسك الحارث بذيل رداءِ عبدالله وقال ضارعا :

— أيها الأمير ، إنى بك وبأمير المؤمنين مستجير ..

* * *

عرض عبدالله الأمر على الخليفة وقال له :

— يا أمير المؤمنين ، قد جعلك الله إماما للمسلمين كى تحكم بينهم بحكم رب العالمين ، إن الحارث يطلب زواج ابنة عمه ذات الهمة ، وهى تبعده .. ونحن نخشى من الفتن والحروب بين العرب ، ونطلب إطفاء هذه الجمرة بجمع الشمل ، فيـكون لها بعلا ، وتـكون له أهلا ..

قال المنصور :

— لابد من تدبير هذا الامر ..

ودعا اليه مظلوما وابنته وظالما وولده ووجوه بنى كلاب ، فدخلوا عليه ، وابتدرته ذات الهمة بالسلام فرد عليها التحية ، وأذن لهم بالجلوس . وأحضرت لهم أطباق الطعام وأكواب الشراب وفيها غرائب الألوان ، وكان المنصور ينظر اليهم والى طريقتهم البدوية فى تناول الطعام والشراب ، ويستمع الى كلامهم ، وهو متعجب ومسرور مما يرى ويسمع . ثم وقف عبد الله وقال :

— يا أمير المؤمنين ، هذا الحارث بن ظالم بن الصحصاح بن جندبة الكلابى يحب أن يتزوج ابنة عمه هذه (وأشار الى ذات الهمة) التى تعد من خير النساء الطاهرات .

قال المنصور :

— وما يمنعه من ذلك وهو أحق بها ؟

— هى كارهة للزواج ، مظهرة للعناد ، وهو بها مشغوف ..

قال المنصور :

— كيف تكره الأميرة الزواج وقد أمر الله به .. ؟

ثم أردف يخاطب ذات الهمة :

— يا فاطمة ..

— لبيك يا أمير المؤمنين ..

— ما الذى يحملك على رفض ابن عمك مع رغبته فى زواجك ؟

— وحياتك يا أمير المؤمنين ما أرده وأرغب فى غيره ، إنما بغضنى الله فى أخبية النساء وحبب الى القتال والسيوف الصقال والرماح الطوال ، ولا أريد أن أكون من ربات الحجال ، فسيفى حجلى ، والغبار كحلى ، والحصان أهلى .

كان المنصور يضحك من كلامها ، على حين كان الحارث يكاد يتمزق خوفاً من خيبة المسعى .. ولما رأى الفرصة توشك أن تفلت منه وثب قائماً وقال :

— أشهدك على يا أمير المؤمنين أن أتزوج بها على شرط يكون فيه رضاها ..

— وما الشرط يا فتى ؟

— أن تكون سماء أراها ولا تكون أرضاً اطؤها ..

فالتفت المنصور الى ذات الهمة وقال لها :

— هذا ابن عمك قد شرط على نفسه ما سمعت ، وهو شرط يحقق لك ما تريدين ..

فسكتت حياء ، وأسرع عمها ظالم يقول :

— سكوتها رضا ..

والتفت المنصور الى القاضى ابن حفصة السلمى — وكان حاضرا — وقال له :

— ايها القاضى ، اعقد عقدة الزواج بين الحارث وابنة عمه ..

وتم عقد الزواج ، وعادت ذات الهمة الى سرادقها وجعلت تبكى ، وقد ندمت على سكوتها الذى عدوه رضا وموافقة .. وما هى فى صميم نفسها الا كارهة متحرجة من الخليفة ومعارضته . ولكنها عزت نفسها بالشرط الذى أشهد عليه الحارث وعزمت أن تتمسك به الى النهاية ..

- ١٧ -

كان لملك الروم « لاوون » بنت اسمها « ملطية » وكانت ذات حسن وشجاعة فكانت تشبه فى ذلك « ذات الهمة » العربية ، نشأت مثلها ماهرة فى الفروسية والقتال ، وكانت الى جانب ذلك تشارك فى سياسة الدولة وتبدى الرأى فى شئونها . وذات يوم كانت فى مجلس أبيها كالعادة ، وجرى ذكر المسلمين والعرب وفتوحاتهم فى بلاد الروم وسقوط كثير منها فى أيديهم . وظلت ملطية تصغى الى القوم وهم يتحدثون فى ذلك محسورين .. ثم اتجهت اليها الأنظار عندما أخذت تتكلم قائلة لأبيها الملك :

— أيها الملك ، ذلك كله وقع فيما مضى وعجزتم عن رده .. أما الآن فان الأمر يجب أن يكون غير ذلك ..

وساد سكوت قطعه الملك بقوله :

— ماذا عندك يا ملطية ؟

— ينبغى أيها الملك أن تجهز لى جيشا كبيرا أسير به الى بلاد العرب ، وحق الانجيل وما فيه من تحريم وتحليل لئن سرت اليهم لآتينك بملكهم تحكم فيه بما تشاء .

ابتسم لاوون وقال :

— وحق المسيح لقد كنت أفكر فى هذا الأمر ، فقد بلغنى أن الفتن ثارت

بين المسلمين وأنهم تحاربوا ، وانتقل الملك من قوم إلى قوم . والتنازع بينهم يضعف شوكتهم ويمكننا منهم . ولو أن راعيا من رعاة الخنازير تحرك من بلادنا إليهم لقهرهم واستولى على بلادهم .

ثم أردف يقول :

— أما وقد عزمت على ذلك يا بنية فانى معد لك كل ما تريدين من رجال وأموال .

* * *

خرجت « ملطية » من القسطنطينية فى جيش كبير ، ومعها أختها « باغـة » التى نشأت على غرار شقيقتها وإن كانت دونها فى الشجاعة ، وقد عين الملك لاوون القائد « أرمويل » مساعدا لملطية ومرافقا لهـا .

وسار الجيش يضرب ميمنة وميسرة حتى عبر نهر « البدنون » ونظرت ملطية فرأت مرجا فسيحا طيب الهواء فيه مياه ورياض وأزهار ، فأمرت بالنزول فيه ، وقالت لمن معها :

— أريد أن أبنى هنا مدينة تسمى باسمى ، كما بنى جدى القسطنطينية وسميت باسمـه .

فقـالوا لهـا :

— نعم ما رأيت ، وهذا المال بين يديك ، والصناع طوع أمرك .

وبنيت المدينة فى خمسة أشهر ، واختارت ملطية أعلى مكان فى ظاهر البـلد ، وبنت فيه قلعة عالية الأسوار متينة البنيان ، وجعلت فيها خزائن المال ، وكذلك بنت باغة قلعة لها بجوار قلعة ملطية .

ولما تم ذلك أمرت ملطية بأن يستعد الجيش للتحرك إلى بلاد العرب ، وقالت لأرمـويل :

— إنى مسلمة اليك هذا البلد «ملطية» وهذه القلعة وسائرة إلى بلاد الاسلام. وكلما أرسلت اليك أموالا اجعلها فى هذه المخازن .

— سمعا وطاعة ..

وسار جيش الروم بقيادة ملطية وأختها باغة ، حتى وصلوا إلى «آمد» وضربوا الحصار حولها ..

وكتب صاحب آمد إلى المنصور ينبئه بحصار جيش الروم للبلد ، ويقول له :: يا أمير المؤمنين ، الأمر يجل عن الوصف ، وجيوش الأعداء لا أول لها ولا آخر ..

- ١٨ -

حينما وصل رسول الخليفة إلى بادية الحجاز ، يستنفر بنى كلاب و بنى سليم وغيرهم من قبائل العرب ، للجهاد والدفاع عن بلاد العروبة والاسلام ، لم يكن هناك من هو أسعد من ذات الهمة ولا أشد تحمسا منها وشوقا إلى لقاء الروم الغزاة .

هذه هى اللحظة التى كانت تنتظرها ، وهذا هو دورها الذى تشعر أنها خلقت من أجله . لم يكن ما مضى من حياتها ومناوشاتها للفرسان إلا تهيؤاً لهذه الفرصة التى تجد فيها الجواب عن سؤال طالما أرقها .. إلى متى يشهر العــرب السيوف فى وجوه بعضهم بعضا .. لا لشىء الا النهب والسلب والتنازع على الرياسات والأخذ بالثأرات .. ؟

لقد قضى الصحصاح على ذلك ، ولكن الأمور عادت بعده إلى ما كانت عليه.

وكان ثمة أمر آخر يؤرقها .. لماذا تظل المرأة العربية حبيسة الدار لا تشارك فى عظائم الأفعال كالرجال ؟ أليست مخلوقا مثلهم ؟ ولماذا يحزن الرجل إذا ولدت له بنت ؟ لقد عاشت بسبب ذلك مأساة طفولتها التى أخذت فى خلالها جارية مملوكة .

حزن أبوها يوم مولدها وأبعدها .. وفرح عمها بمولد ابنه . لقد أزمعت أن ترى القوم أيهما أجدر أن يفرح به ..

ودقت الطبول ونادى المنادى :

— هيا ياعرب .. هيا يا أبناء الصحصاح وأحفاد الصحصاح .. هيا إلى الجهاد روح الصحصاح تهيب بكم أن تفعلوا مثله كى تنالوا من الأجر والذكر ما ناله .

ولبى الجميع ، وصهلت الخيول ، ولمعت السيوف فى وجه الشمس ، وتحركت الجيوش ، وسارت تضرب الصخر بحوافرها آنا ، وآنا آخر تثير الرمال ، وتطير بفرسانها كالبزاة .. ووجهتها دار الخلافة ببغداد ، حيث يتجمع الجيش الكبير ويتزود ويأتمر بأمر الخليفة ، ثم يسيرون إلى « آمد » حيث يرابط جيش الغزاة الروم .

خرج جيش العرب من بغداد ، وسار حتى وصل إلى بلد قريب من آمد ، فوجدوا الناس هناك فى حالة شديدة من الفزع ، لما ترامى اليهم من أنباء جيش « ملطية » وفتكها بالرجال وسبى النساء والأطفال ، وعلم المسلمون أن ملطية نهبت أموالا كثيرة وأخذت عددا كبيرا من الأسرى ، وبعثت بهم وبالأموال إلى الملك لاوون مع أختها باغة .

* * *

جمع عبدالله بن مروان ذوى الرأى من أبطال العرب ، وأخذوا يتشاورون فى رسم خطة القتال ، واتجهت الانظار إلى رجل من بنى سليم عرف بسداد الرأى والمشورة ، وهو « الحصين بن ثعلب » قال الحصين :

— يا قوم ، اسمعوا منى ..

قال له عبد الله :

— قل يا حصين فنحن مصغون اليك ..

— الرأى عندى أن نقسم أنفسنا قسمين ونجعل من الجيش فرقتين ، الفرقة الأولى تقصد إلى آمد والفرقة الثانية أسير أنا بها إلى طريق باغة ، عسى أن نلحق

بها و نسترد منها الرجال و الأموال ، ثم نعود إلى آمد من خلف جيش ملطية ، و نضع السيف فيهم ، و نأخذ عليهم الطريق إلى بلادهم ، ويقعون بين الفرقتين ..

قال القوم :

— نعم ما أشرت به .

وقال عبد الله :

— من يسير مع الحصين ؟

قالت ذات الهمة :

— نحن أيها الأمير .. أنا وأبي مظلوم وعمى ظالم وولده الحارث وباقى فرسان بنى كلاب، انى أريد أن ألقى بهم « باغة » ومن معها ، ثم أعود الى «ملطية» لألقاها عند آمد ..

— لك ما تريدين، خذوا أهبتكم وسيروا مع الحصين ،وسأمضى أنا وعساكر العراق وسائر العرب الى آمد ..

وقالت ذات الهمة لفرسان بنى كلاب :

— استعدوا منذ الآن ، فسيكون سيرنا ليلا حتى لا يعلم بنا أحد من الجواسيس ويبلغوا أمرنا الى جيش الروم فيفسد علينا التدبير .

وقال عبد الله :

— لله درك ياذات الهمة .. ياذات الشجاعة والفطنة ..

كانت « باغـة » وجيشها يسيرون سيرا بطيئا ، لمـا معهم من الأثقال والنساء والأطفال المربوطين بالجبال . ساروا ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع نزلوا يستريحون بمكان يقال له « أنوس » . وبعد الراحة شرعوا فى الرحيـل ، وإذا هم يرون من خلفهم غبارا يحجب ماوراءه ، وإذا الغبار ينكشف عن فرسان بأيديهم السيوف الهندية ، وتحتهم الخيول العربية ، وكأنهم جمرات نار فى البرية ، وفى مقدمتهم ذات الهمة والحارث ابن عمها وأبوه ظالم ، يصيحون بالتهليل والتكبير. فلما نظرت الروم الى ذلك تحيرت واندهشت ... وقالت لهم باغة :

— ويلكم .. هؤلاء مسلمون .. كيف أتوا الى هذه الأرض ولحقوا بنا كالشياطين..؟

فقالوا :

— وحق المسيح لا ندرى ..

وتأهب الروم للصراع . وحمل عليهم بنو كلاب وهم فى شوق الى الجهـاد ، وداهموهم بالخيول الجياد والسيوف الحداد ، وصاحت باغة صيحة النزال ، فبرز لها من بنى كلاب أحد الأبطال ، وتصاولا وتصادما ساعة من النهار ، وانتهزت باغة غفلة منه وضربته بالسيف ضربة أطارت رأسه ..

ولمـا نظرت ذلك ذات الهمة أخذتها نخوة العرب ، فحملت على باغة مثل النار فى الحطب ، وجاولتها وضايقتها حتى أوهنت قواها ، فضربتها بالسيف على عنقها

فشقته ، ووقعت باغة قتيلة على الأرض .. فهلل المسلمون وكبروا وأوقعوا بالسيوف فى الروم وأخذوا عليهم الطرقات حتى لا ينجو منهم هارب ، وأهلكوهم جميعا ، وحلوا رباط الأسرى ، وأطلقوا النساء والأطفال ، وأخذوا الأسلاب والأموال .

* * *

كان الحارث بن ظالم يلاحظ ذات الهمة فى أثناء المعركة وهو معجب مبهور من شجاعتها فيزيد وجده وغرامه ..وقد بذل فى القتال أقصى مافى وسعه عساه يسترعى انتباهها وينال رضاها ، ولكنها لم تكن تعبأ به ولا تلتفت اليه ، مما زاد اشتعال النار فى فؤاده .. وبعد المعركة جلس سارحا شارد اللب لا يكاد يعى شيئا مما حوله .. وفجأة رآها فى زى رومى زادها حسنا ، وتلفت حوله فشاهد بقية الأبطال يلبسون الملابس الرومية ، ويبدون فى هيأة عساكر الروم .. فتعجب من ذلك وسأل أباه وقد رآه فى زى البطارقة :

— ما هذا يا أبى ؟

— ألم تعلم ما دبرناه ؟

— لا يا أبت ..

— اين كنت اذن ؟

— لم أكن بعيدا عن هذا المكان .

— كنت حاضرا بجسمك فقط ..الى متى تظل تائه العقل؟ ألم تصبح زوجتك؟

— نعم ولا ..

— لا تعجل يابنى ، وعليك أن تكسب ودها ، واذا كانت اليوم جامحة فغدا يذهب جماحها وتصير زوجة ككل الزوجات ..

تنهد الحارث وهو يقول كأنه يناجى نفسه :

— متى يجىء هذا الغد ؟

ثم قال الأب فى شىء من الحزم والصرامة :

— دع عنك هذا وانهض الى مانحن فيه ..

— وأى شىء نحن فيه ؟

— لقد أشار الحصين بأن نلبس ثياب القتلى من الروم وتلبس ذات الهمة ثياب أميرتهم باغة ، ونتجه الى مدينة « ملطية » وسيخرج القوم الى استقبالنا دون أن يفطنوا إلى حقيقتنا ، ثم نباغتهم ونعمل فيهم السيوف ونستولى على المدينة ..

ثم قال ظالم لابنه :

— قم واخلع عنك الهموم والأوهام والبس ثياب واحد من قتلى الروم ، كى نسير مع فرسان العرب .

قال ذلك ونظر الى ولده فرآه لا يزال ساهما فقال له :

— يا حارث ، لا يليق بك وأنت من بنى كلاب أن تشغل نفسك عن القتال بربات الحجال ..

فخجل الحارث ونهض يأخذ أهبته ..

* * *

سار الجيش العربى قاصدا مدينة «ملطية» وقد بدا فى كل مظاهره كأنه جيش من الروم .. ذات الهمة فى المقدمة كأنها « باغة » وقد ربطوا بعض السبايا من النساء والأطفال وساقوا بعض الرجال فى زيهم العربى كأنهم أسرى ، ووضع الحصين على وجهه لحية شقراء مثل لحى البطارقة .. وواصلوا السير الى أن أشرفوا على المدينة ،

وكان البشير قد سبق الى أهلها يبشرهم بقدوم الأميرة باغة ظافرة ومعها ما معها من الأسرى والأموال ... فخرجوا لاستقبالها وفى مقدمتهم « أرمويل » .

لم يلبث العرب طويلا على حالهم تلك ، بل أسرعوا إلى العمل قبل أن ينكشفوا فما دخلوا من باب المدينة حتى سلوا سيوفهم وأعملوها فى القوم ، وقتلوا من أصر على المقاومة والعناد ، واستولوا على البلد ، واستقروا فيه فرحين مهللين مكبرين ..

فى صباح اليوم التالى لفتح ملطية ركب قواد العرب وجعلوا يجولون فى المدينة ، فشاهدوا قصورها وأسوارها العالية ، وبساتينها الناضرة ، وقد سرهم طيب هوائها واعتدال جوها ، وقالت ذات الهمة :

— يا بنى عمى ، يجب أن نحرص على هذه المدينة فنحصنها ولا نتركها ، ونجعلها قاعدة لنا نحارب منها الروم ، ونمنعهم من غزو بلاد العرب . وما أجمل أن نجعلها لنا وطنا ..

فقالوا لها :

— نعم ما رأيت يا ابنة العم ..

وقال مظلوم :

— بعد أن نمضى إلى نصرة المسلمين فى « آمد » ونفرغ من حرب ملطية يذهب بعضنا إلى البادية ويأتى بالأهل والأولاد ونقيم هنا ..

وقال ظالم ..

— الصواب ما أشرت به يا أخى ..

وقد وجدوا فى « ملطية » خزائن نفط تركها الروم ذخيرة فيها للحاجة إليها قبل أن يذهبوا لحرب المسلمين بعد أن أخذوا حاجتهم منها .

قال الحصين :

— خذوا من هذا النفط معكم ، فقد نحتاج إليه ، ولنترك فى هذا البلد من يحفظه ، وعجلوا بالمسير فان قلبي خائف على الأمير عبدالله ومن معه من المسلمين فى آمـد .

وتركوا فى ملطية سعيد بن الفرج أحد أبطال بنى كلاب فى ألف فارس من قومه ، ورحلوا طالبين آمـد ..

* * *

— ٢٠ —

أشرف العرب على مكان يقال له « خرتيت » قريبا من آمد ، وعثروا هناك على ثلاثة من الروم قادمين من آمد ، فأخذوهم ، وعن حالهم سألوهم ، وعن جيش المسلمين استخبروهم ، فقال المقدم فيهم :

— نحن نقول لكم الحق وافعلوا بنا ماشئتم .. أما جنود المسلمين فقد كسرتهم ملطية ، وما دخل آمد منهم إلا القليل مع ملكهم الذى يقال له « عبدالله » أما نحن فقد أرسلتنا الملكة ملطية لنأتيها بالنفط، فقد تعسر عليها فتح آمد أمام المقاومة التى تقويت بمن دخلها ، والملكة خائفة أن يطول الحصار حتى يأتيها خليفة المسلمين ..

قال الحصين :

— وماذا تصنع بالنفط ؟

فقال الرومى :

— معها حكيم من حكماء الروم يدعى « شدلوخ » وعدها بأن يستخلص لها آمد إذا أتت له بالنفط ..

— وماذا سيفعل وما خطته ؟

قال الرومى :

— سأقول لك السر ، وافعلوا بنا ما شئتم ..

— قل ولن يمسك أحد بسوء ..

— أهذا وعد منك أيها الأمير ؟

— نعم ..

— مع هذا الحكيم كتاب فيه تاريخ آمد منذ إنشائها ، وفيه بيان لمجرى الماء في المدينة .. وهو يريد أن يستخدم النفط في قطع الماء عن أهل البلد ، فيضطرون إلى التسليم ..

* * *

اشتدت القاومة داخل مدينة آمد بدخول عبدالله بن مروان ومن معه من الفرسان ، وكانوا يرمون الروم بالسهام من فوق الاسوار ، وصمدت ملطية وجيشها في عناد ، وأصرت على حصار البلد حتى يسلم أهله ، ولكن الحصار قد طال ، واحتارت ملطية في الأمر ، فجمعت حكماء الروم ، وقالت لهم :

— أريد منكم أن تدبروا لى حيلة نأخذ بها آمد ، فقد طال الأمد ، وأخشى أن يبعث الينا ملك المسلمين بجيش آخر ، فقال لها الحكيم « شدلوخ » :

— أيتها الملكة ، إن عندى كتابا قديما ، ورثته عن أبى ، وأبى ورثه عن جده ، وهو من وضع الحكيم « أرسطاليس » وهو يشتمل على أخبار جميع البلاد ، وفيه ذكر آمد ، وبيان مصدر الماء الذى يتدفق إليها خارجا من وسطها . وأنا استطيع أن أحول هذا الماء عن آمد من مكان أعرفه ، وأهل آمد لايستطيعون البقاء بدون ماء ، فيسلمون إليك فى عشرة أيام .

ففرحت ملطية وقالت لشدلوخ :

— إن فتحت هذا البلد فانى أوليك عليه .

ثم قال شدلوخ :

— واعلمى أيتها الملكة الشجاعة أن قطع الماء سيفيدنا حتى ولو اعتمد أهل البلد على مياه الآبار ، لأن الماء يمر فى سرداب ، فاذا انقطع منه صار هذا السرداب طريقا ندخل منه إلى المدينة ليلا ، والليل له هيبة ، والظلام أعون على النجاح ، وقد رسمت لذلك خطة .

وسكت قليلا ، فقالت ملطية :

— قل ما عندك أيها الحكيم ..

— آخذ أنا فريقا من الجيش ونمر بالسرادب إلى داخل المدينة ، وهنا سنحتاج إلى النفط لنوقد به المشاعل كى تنير لنا الطريق . أما أنتم فانكم فى الوقت نفسه تضعون السلالم على الأسوار وتهبطون منها إلى المدينة وتقاتلون المدافعين وتشغلونهم عنا حتى نعبر ، وعندئذ يقعون بين الفريقين ..

وأرسلت ملطية الثلاثة الذين التقى بهم أبطال بنى كلاب ، لكى يحضروا النفط من مدينة ملطية .

وفى المساء خرج شدلوخ وملطية وبعض الخواص ، وسار بهم شدلوخ حتى وصلوا إلى المكان الذى يعرفه وجعل يدير نظره فيه ، ثم قال لهم : احفروا هنا . فحفروا ، فظهر لهم بناء من الرخام سمعوا دوى الماء من تحته .. قال الحكيم : ارفعوا هذه الرخامة ، ففعلوا ، وإذا الماء يظهر من تحتها ، وفى مجراه حجر كبير تعاونوا عليه حتى رفعوه ، وإذا تحته بالوعة كبيرة اندفع إليها الماء وانقطع جريانه فى ممره إلى داخل البلد .. ثم صعدوا وأعادوا الرخامة إلى مكانها . وسووا فوقها التراب كما كان .

وقال الحكيم :

— الآن لا تدخل المدينة نقطة واحدة ، والماء كله تحول إلى سفح الجبل ..

- ٢١ -

قال عبد الله بن مروان لحاكم آمد :

— أتعرف من أين قطع الماء عن البلد ؟

— لا والله يا أمير .. وما حدث هذا من قبل ، وما كان فى حسابنا ..

— والآبار .. هل يمكن الاعتماد عليها ، والى متى ؟

— الآبار قليلة . ولا يمكن أن تصبر المدينة على قطع الماء أكثر من عشرة أيام ، وبعدها تهلك الدواب ويموت الناس من العطش ..

— لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

ثم قال عبد الله لحاكم آمد :

— ليس أمامنا الآن إلا أن نخرج الى القوم ونقاتلهم ، فاما أن ننتصر عليهم ونجلب الماء ، وأما أن نستشهد ..

— هذا أحسن من أن نبقى ونقعد عن الجهاد ونموت من العطش ، ونخسر الدنيا والآخرة ..

— هل عندك نفط ؟

— عنــدى ..

وملئت القوارير بالنفط ، ووزعت على الرجال ، وأخذ كل واحد واحدة ، وخرجوا ليلا من أبواب المدينة .

فلما رآهم الروم تركوا خيامهم وهرعوا اليهم بسيوفهم ، فلما دنوا من العرب وهموا بالقتال رماهم المسلمون بقوارير النفط المشتعلة فى وجوهم ، فتعلقت بثيابهم ففزعوا وتقهقروا إلى خيامهم ، وإذا هم يسمعون صياحا فى الخيام .. ذلك أن بنى كلاب كانوا قد أقبلوا فى ذلك الوقت فرأوا الخيام خالية قد خلوها ،ولما رأوا جنود الروم عائدين نادى منادى العرب : يا آل كلاب ..

وفى الحال خرج بنو كلاب من الخيام وصبوا عليها النفط وأوقدوا فيها النار .

تحير الروم وانخلعت قلوبهم من الفزع وقد أخذهم الصياح من الجهتين ، وفزعت الخيل من النار فطلبت الفرار ، لم يستطع أحد منهم أن يفر ، فمن قصد إلى الخيام أخذه بنو كلاب ، ومن اتجه إلى البلد وقع فى أيدى العرب . وقد احترقت ملطية وحاشيتها ..

ولما أصبح الصباح تمكن جيش العرب وأهل آمد من إطفاء النيران ، ودخل اليهم بنو كلاب والتقى الأحباب بالأحباب ، وحدثت ذات الهمة الأمير عبد الله بما وقع لهم مع « باغة » واستيلائهم على « ملطية » وقالت :

— لقد عولنا على الإقامة فى ملطيـة ، نأكل من رزق الله ، ونحمى دولة الاسلام من غارات الروم .

فقال الأمير عبد الله :

— هذا هو الصواب ، وما فى الأمر الا أن نكاتب أهلنا ونرسل من يأتى بهم إلى هنا من بادية الحجاز .

فقال مظـلوم :

— أنا أمضى فى نفر من بنى عمى ، وآتيكم بكل ما يتعلق بكم وبنا ، فاكتب ما تريد إلى بنى سليم وأنا أحمله اليهم .

وخرج الأمير عبدالله وحاكم آمد ، وجعلا يبحثان عن المكان الذى قطع منه الماء ، فلم يعثروا على أى شيء يدل عليه . فعاد مهمومين .. قال لهما الحصين وقد رأى مايبدو عليهما من الحزن والكآبة :

— إنى أراكما وقد رجعتما ضيقى الصدر ..

فقال له عبدالله :

— أما حدثناك أن الماء قد انقطع عنا ونحن فى الحصار ، وقد أشرفنا على الهلاك ؟ واليوم خرجنا نبحث عن الموضع الذى انقطع منه فما وجدناه ..

فضحك الحصين وقال له :

— قم بنا يا ابن العم ..

— إلى أين ؟

— ندخل فى السرداب ونمشى فيه إلى أن نقف على المكان الذى يأتينا منه الماء .

— حقا ، كيف غاب عنا ذلك ؟

وقام معه هو وحاكم آمد وأخذوا معهم بعض الرجال وساروا فى السرداب يحملون المشاعل وظلوا سائرين حتى سمعوا خرير الماء ، واستطاعوا أن يعيدوا المياه إلى مجاريها ..

* * *

وتحرك جيش المسلمين من آمد إلى ملطية ، وفى مقدمته الأمير عبدالله وذات الهمة ولما وصلوا إلى هناك تفقدوا القلاع ، وحصنوا الحصون . وفضلت ذات الهمة أن يكون مقامها بالخيام فى ظاهر البلد .

وكتب الأمير عبدالله إلى الخليفة المنصور ينبئه بكسر الروم وأخذ ملطية ، وأعطى الكتاب لمظلوم ، وسار مظلوم إلى بغداد ومعه ألف فارس وخمس الغنائم وأسرى الروم ، فلما وصل إلى بغداد علم أن المنصور قد توفى وتولى بعده الهادى ، فتقدم إليه بالكتاب والأموال والأسرى ، فسر الهادى بذلك سرورا عظيما وأهدى إلى مظلوم فاخر الهدايا ..

وسار مظلوم إلى البادية ، وأنبأ بنى كلاب وبنى سليم بما وقع ، ففرحوا وأقاموا الولائم وغنوا ورقصوا ، واستعد أهل المجاهدين الذين رغبوا فى الإقامة بملطية للرحيل ، فشدت الهوادج على الجمال وركب فيها النساء والأولاد ، وركب الفرسان خيولهم ، وسار الركب يقطع القيافى والقفار إلى ملطية .

— ٢٣ —

كان الحارث يتطلع إلى ذات الهمة وهى تخرج إلى الصيد كل يوم فى الأماكن القريبة من ملطية ، وتعود ناضرة مشرقة ، وفى قلبه نار لا تخبو .. ولم يكن يجرؤ على أن يجاوز الحد الذى التزمه أو يخل بالشرط الذى اشترطه .. أن تكون فقط سماء يتطلع إليها .. وطالما تطلع حتى أضناه التطلع .. فراح يشكو حاله إلى كل من يلقاه من بنى سليم وبنى كلاب ، إلى أن استمع إلى شكواه شيخ من بنى سليم. فقال له :

— أنا أدلك على من يساعدك ويبلغك مرامك ..

— عمرك الله ياعم .. من هو ؟

— فتى من بنى عمنا يدعى « عقبة بن مصعب » وهو مفرد زمانه فى هذه الأمور وأقدر الناس على التدبير والحيل ، فمنذ نشأ ماله شغل إلا القراءة فى كتب العلم والمعرفة .

قال الحارث بلهفة :

— ومتى ألقاه ياعم .. وأين هو ؟

— غدا أصحبك إليه ..

ولم ينم الحارث ليلته ، وفى الصباح قال لأمه :

— أعدى حلوى لكى أذهب بها إلى رجل يدعى « عقبة بن مصعب » قيل لى إنه يقرأ كتب الحكمة ويستطيع أن يعمل مايقربنى من ذات الهمة .

— عقبة بن مصعب .. ؟ لقد سمعت عنه ، إنه فقيه يقرأ القرآن والحديث ، ولكن يابنى إن سيرته سيئة ، فهو مع علمه يفسد بين الناس ، وكان فى صغره يلقى الفتن والشر بين النساء فى الحى .. ويقال إنه كبر وصار حكيما ..

— يا أماه .. أنا لا يعنينى منه إلا قضاء حاجتى ..

* * *

أخذ الحارث الحلوى ، وذهب الى شيخ بنى سليم كى يصحبه الى عقبة . وقدمة عليه فى مضربه ، وقدم له الحارث الحلوى فأكل هو والشيخ وهو يقول للحارث :

— بارك الله فيك يافتى العرب .. ألك حاجة فنقضيها ؟؟

قال الشيخ :

— يا ابن العم ، إن للحارث حديثا يريد أن يطلعك عليه الساعة ، فساعده على مطلوبه .

— سمعا وطاعة يا عم .

شكا الحارث لعقبة ما يلقاه من هوى ابنة عمه ، وقال له :

— وحق الرب فالق الحب ، اذا انت قضيت حاجتى ، لأدفعن اليك مائة دينار وثوب ديباج وفرسا من جياد خيلى ..

فقال عقبة فى صوت خفيض وبنغمه مطمئنة :

اعلم يا أمير أن هذا الأمر يجب إخفاؤه وكتمانه ، ولا أحب أن يسمع به أحـد .

— لك ذلك .

— من أقرب الناس الى ابنة عمك ؟

— ماذا تعنى بأقرب الناس ؟

— من يقوم بشأنها ويلازمها ؟

— أخوها فى الرضاع « مرزوق » وهو يصحبها فى السفر والإقامة .

— قضيت حاجتك ..

قال عقبة ذلك وأحضر صرة أخرج منها شيئا معجونا وأعطاه منه وزن دانق ، وقال له :

— خذ هذا ..

— ماذا أفعل به ؟

— استدع أخاها مرزوقا وأعطه شيئا من المال ، وقل له : يا أخى إنى أريد منك أن تضع هذا لسيدتك فى الطعام أو فى الشراب ، حتى أبلغ منها مرادى ، وأنت تعلم أنها زوجتى وحلالى وليس فى الأمر معصية ولا مكروه .

وعليك أن تحاوره وترغبه حتى يقبل ، فان رضى وتناولت هذا البنج ، فانها تغيب عن الوعى وتبلغ مناك .

* * *

قال الحارث لمرزوق :

— يا أخى ، أنت تعلم أن ذات الهمة ابنة عمى ، وقراننا معقود من أيام المنصور . وقد رأيت ما جرى لى وما قاسيت من أعراضها . وإنى أريد منك أن تعاوننى عليها ، وهذه مائة دينار منى اليك تقضى بها حوائجك ..

— وما الذى تطلب منى أن أفعله ؟ أطلعنى على سرك وأوضح لى أمرك .

فأوضح له الأمر ، وقال له :

— ماعليك إلا أن تضع هذا الدواء فى القدح الذى تشرب منه عند رجوعها من الصيد .

* * *

أسرع مرزوق الى الحارث قائلا :

— هلم الى ما أنت طالب ..

— أفعلت يا مرزوق ؟

— نعم .. كانت فى شدة العطش وهى عائدة من الصيد ، نقدمت لها القدح ..

وسار معه حتى اقتربا من مضربها ، وتهيب الحارث فقال لمرزوق :

— أدخل قدامى وحرك يديها حتى أنظر حالتها .

وفعل مرزوق ، فلم تتحرك فخرج تاركا الحارث ، وهو يشعر بالندم ، ولكنه قال فى نفسه : يعز على والله ما جرى ، غير أن الشرع حكم بذلك وحلله . ثم عاد الى نفسه وتصور ذات الهمة بعد أن تفيق من غشيتها وتعلم بما وقع .. فهاله الأمر وعاوده الندم . وبعد برهة رأى الحارث يخرج من المضرب وهو ينشد شعرا وعلى سيماه علامات الفوز ، فقال له :

— اهرب يا حارث ، فانك والله إن وقعت فى يدها لمقتول ..

ذهب الحارث إلى أبيه وأعلمه بما فعل ، وأعلم ظالم أخاه مظلوما ، وقال الحارث لعمه مظلوم :

— لقد عولت على الهرب .

— ولم تهرب ؟ ما فعلت إلا ما أحل الله لك ..

قال مظلوم ذلك واتجه نحو مضرب ابنته ذات الهمة فسمعها تصيح فى مرزوق :

— يا عبد السوء يا خائن ، أتمكن منى ذلك الوغد ؟

قال مرزوق وهو متخاذل نادم :

— لقد خدعنى ياسيدتى .. ولولا علمى أنه زوجك ..

ولم تدعه يكمل ، بل صرخت فيه :

— زوجى .. لا كنت ولا كان ، ولا عمرت بمثلكما أوطان ..

وجردت الحسام وهجمت عليه .. فأسرع اليها أبوها ومنعها عنه وقال لها :

— يا بنية ، لا تغضبى ولا تخرجى من شريعة الله ، فما فى الحلال من عيب وما هذا ينقص من قدرك ..

فأطرقت خجلا ، ورمت السيف من يدها ، ثم قالت :

— وحق نبى الرحمة ، وسراج الظلمة ، ومصباح الأمة ، لئن رجع الحارث ووقع بين يدى لأقتلنه شر قتلة ..

— ٢٣ —

لما شعرت ذات الهمة بالجنين فى أحشائها لزمت البيت وأظهرت المرض . ومضت الأيام والشهور ، الى أن جاء أوان الولادة ..

ما إن رأت النساء المولود حتى بهتن .. وأظهرن للوالدة حزنهن ، ونظرت اليهن ذات الهمة مستفسرة ، فقالت إحداهن :

— إنه أســود ..

وقالت أخرى :

— أسود مثل الليل ..

وتجرأت ثالثة فقالت :

— وأنت وأبوه أبيضان .. نحن لا نعرفك الا طاهرة الذيل .. هلاأعلمتنا بباطن الأمر ؟ .

فقالت ذات الهمة وهى ثابتة الجنان :

— أعوذ بالله أن يكون لأمرى باطن غير الظاهر، فان جاء ولدى أسود فإنه صنعة القادر ، يخرج الميت من الحى ، ويخرج الأسود من الأبيض ، يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد . وما أعرف غير هذا .

قالت إحدى النساء :

— خير ما تفعلين أن تقطعي سرة هذا الغلام وتخفي أمره حتى لا يبقى عاراً الى الأبد ..

ولقي هذا القول الاستحسان من بقية النسوان ، فعلقن عليه بالموافقة والتأييد ، فصرخت فيهن ذات الهمة وامرتهن بالخروج ..

لقد فزعن منها وانصرفن متعجبات من قوتها وصلابتها في مواجهة هذا الموقف الذي تضعف في مثلة أية امرأة ..

ولكنهن لا يدرين أنها تخفي ألمها وتحاول أن تتغلب على ضعفها .. لقد بدأت الكارثة — في نظرها — بفعلة الحارث ، ثم ها هي ذي تتم بولدها الأسود . وما يهمها هي أن يكون ولدها أسود أو أبيض بمقدار اهتمامها بما سيثيره من أقاويل وفتن ..

ثم قالت في نفسها : لقد شغلت بالسيف والجهاد في سبيل الله ، وما لي حاجة في زواج ولا أولاد ولكن هذا ما أراده الله ، ولا بد أن يكون فيما أراده الله حكمة لا نعلمها .

وامرت بتسليم الولد الى حاضنة ترضعه وترعاه ، كي تفرغ للجهاد واستئناف النضال ، وقد سموه « عبد الوهاب » وأشارت عليها إحدى قريباتها أن تخفي أمره على أن تتبناه الحاضنة ويقال إن المولود قد مات .. فأبت ذلك ، وقالت باصرار : لن يكون ذلك أبدا ، ولن أدع مأساة طفولتي تتكرر بولدي .. وليغضب من يغضب وليكن ما يكون ..

* * *

ظل الحارث مبتعدا عن ذات الهمة خوفا منها بعد أن علم أنها تريد قتله ، حتى جاءه يوما أحد العبيد ، وقال له انه سمع من إحدى الجواري أن ذات الهمة ولدت ولدا أسود ، وأنها تخفيه حتى لا يتهموها بمرزوق . . فطلب منه إحضار الجارية ليسمع منها .

قالت الجارية :

— وضعت زوجتك ياسيدى غلاما أسود .

قال كأنه يكلم نفسه :

— من أين أتت به يا ترى ؟ باللعار ..

— لقد هجرتك أيها السيد واختارت لها بعض العبيد لأنها نشأت معهم ولا تميل إلا اليهم ..

— وكيف أعلم صدق قولك ؟

— يامولاى ، خذ معك بعض المشايخ واذهب اليها ليلا تجـده عندها ، فالحاضنة تأخذه بالنهار وتعيده الى أمه فى الليل .

وذهب الحارث كما أشارت الجارية ، وكان أبوه ظالم فى جملة من معه من مشايخ القبيلة ، ولما كانوا على باب ذات الهمة صاح ظالم وهو يتصنع السرور :

— يا فاطمة ، أرينا ولدنا عبد الوهاب .. الولد المبارك .. لا تخفيه عنا ياسيدة العرب وكريمة النسب ..

فلما سمعت كلام عمها انخدعت به ، وقامت تستقبله بالولد قائلة له :

— هذا ولدكم فانظروه ..

ومدت بصرها الى ماوراءه ، فرأت جمعا كبيرا ، فدهشت وقالت غاضبة :

— ما الخبر ؟ لم هذا الجمع ؟

وأنعم ظالم النظر فى المولود ، فوجـده أسود عميق السواد .. فقهقه ساخرا وهو يقول :

ـــ واطيباه ياذات الهمة .. من أين هذا الولد ؟ الحارث أبيض ، وأنت بيضاء. الآن انكشف أمرك .. ومن أجل هذا قلت ما أريد الحارث .. لماذا ؟ لكى يخلو لك الجو مع العبد مرزوق ..

قال ذلك واستل سيفه وهجم عليها وعاجلها بضربة جاءت فى رجلها فجرحتها . فوضعت ذات الهمة الطفل على الأرض ووثبت إلى سيفها .. وفى نفس اللحظة وصل إلى المكان أبوها مظلوم فى جماعة من رجاله ، واشتبك الفريقان .. وبلغ الخبر الأمير عبدالله ، فحضر فورا ، ودخل بين المتعاركين عقلاء القوم ، ووضعت السيوف فى أغمادها ، واحتكموا إلى الأمير عبدالله لكى يفصل فى القضية ، فجلس على كرسى كبير وأحضر المتخاصمون بين يديه ..

تقدم الحارث وعيناه تقدح بالشرر وقال :

ـــ أيها الأمير والسيد الخطير ، إن ذات الهمة تبغضنى وأنا ابن عمها ، وتزهد فى وأنا بعلها .. أتعلمون لماذا ؟

همهم الحاضرون ، وواصل الحارث كلامه :

ـــ لأنها تميل إلى العبيد .. وقد حملت منهم ، وجاءت بولد أسود من الليل البهيم وتدعى أنه ابنى .. وأنا أيها الأمير أبيض وهى بيضاء فمن أين يأتينا السواد ؟

وظل الأمير ساكتا وعلت أصوات المتجمعين واختلفت أقوالهم :

واحد يقول :

ـــ هذا القول لا يسمع ..

وآخر يقول :

ـــ أرأيتم مولودا أسود أبوه أشقر وأمه بيضاء تسطع ..

وصوت ثالث يرتفع :

— خافوا ظلمة القبر والمضجع ؛ ولا تقولوا فى الحرائر مالا يسمع . ألم تعلموا أن الله تعالى هو الذى يعطى ويمنع ، ويضع ويرفع ، ويخلق الأبيض والأسود ولا يعلم أحد حكمة ما يصنع ؟ أما رأيتم الزرع كيف تأتى سنبلة منه بمائة حبة وأخرى تفسد ما تطلع ؟

وما يسكت هذا حتى يقول غيره :

— هذه الفارسة الزاهدة قد عرف كل واحد منكم ماتصنع ، وأنها تسجد لله وتركع ، وعن بلاد المسلمين تدفع ، فكيف ترمى بالفجور الأشنع ؟؟

وكانت ذات الهمة تستمع إلى كل ذلك مذهولة .. تسخط حين تسمع ما يقال ضدها ، وترضى عندما تسمع من يدفع عنها . وهى فى الحالين ساكتة ضابطة لنفسها .. واذا هى كذلك دنا منها أبوها غاضبا يكاد ينفجر من شدة الغيظ ، وقال لها : أهكذا يابنية تفضحيننا بين العرب ؟ وذرفت عيناه الدموع لشدة تأثره وما يدور فى نفسه من صراع بين شكه فى ابنته وثقته بطهارتها ..

فلما سمعت ذات الهمة ذلك من أبيها خرجت عن صمتها ، ولم تتمالك أن صرخت فى وجهه :

— وامصيبتاه .. ما هذا الكلام يا أبت ؟ أصدقت كلام هذا الباغى الظالم الذى هو كأمه ظالم .. وابنه الحارث الخائن ؟ .

سكت مظلوم ، وقد تراءت له صورتها وهى تقوم الليل وتصوم النهار ، وتدعو الله وتستغفره ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

— معاذ الله .. ولكن ..

فقالت :

— ولكن الفضيحة بين العرب .. تريد أن تقول ذلك .. اعلم يا أبى أنى لا أعبا بشىء من هذا ما دمت أعلم من نفسى أنى بريئة مما يرمونى به . والذى أنصفك من ظالم لا بد أن ينصفنى منه ومن ابنه الحارث ..

ثم التفت الاب والابنة الى الأمير عبد الله وهو يقول بعد أن تلاشى الضجيج وأنصت الجميع :

— اسمعوا ما أقول لكم ، نحمل هذا الولد الى مكة ، و نقصد به الى العراف. فان قال إنه ولد الحارث لزمه وتنطفىء هذه الفتنة ، وإن قال بغير ذلك يكون تدبير آخــر ..

استحسن الجميع هذا الرأى ووافقوا عليه .

انتخب مظلوم من أصحابه مائة فارس ، وانتخب ظالم وولده مائتين ، وأخذ الامير عبد الله من بنى سليم ثلثمائة . وسار الجميع طالبين مكة ، حتى كان بينهم وبينها مسيرة ثلاثة أيام ، فنزلوا يستريحون حيث رأوا مرجا فسيحا به أعشاب وأزهار برية . وعلى البعد لحوا خياما مضروبة،فى وسطها قبة من الديباج منصوبة . وعلموا أنها مضارب بنى حرب ، وأن القبة لشيخ القبيلة « غاشم بن عامر » وهو فارس صنديد ، اشتهر بلقب « شيطان الحجاز » لقوة بأسه ودأبه على التعرض للحجاج ونهب أموالهم .

قصد ظالم وابنه الحارث الى مضرب غاشم . فاستقبلهما بالترحيب ، وسألهما عن وجهة ركبهم . فقص عليه ظالم القصة من أولها الى آخرها . وكان يزفر وهو يتحدث ، ويصف مظلوما وابنته وأصحابه بأقبح الصفات . وختم كلامه قائلا :

— وذمة العرب لأقطعن دابرهم ، ولن أبقى على أحد منهم .. وخاصة بنت مظلوم وابنها ولد الزنا .

فلما سمع ذلك منه غاشم أخذته الحمية ، فقال له :

— أيهما أحب اليك : قتلها أم قتل ابنها ؟

— كلاهما .

ولما رجع ظالم الىخيامه بعث الى غاشم بخمسين من جياد النوق والجمال . وهو يمنى النفس بالخلاص من ذات الهمة وولدها على يد غاشم .

قالت ذات الهمة لأبيها :

— يا أبت . إنى أخشى غدر الحارث وأخيك ظالم . فقد زار ظالم بنى حرب وأميرهم غاشم قاطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام . وأهدى اليه إبلا ..

— وماذا تخشين يا ابنتى ؟

— إن قلبى يحدثنى بغدرهم ومكرهم .

وما أصبح الصباح حتى علا الضجيج والصياح ، إذ أقبلت إلى مضارب بنى كلاب وبنى سليم خيل تخب بالفرسان . . ونادى مناد :

— يا بنى سليم ، لا بأس عليكم ، انعزلوا عنا ، فما خصومنا إلا ذات الهمة ومن ينتصر لها من بنى كلاب أو غيرهم .

ولما سمع الأمير عبد الله ذلك قال لقومه :

— ويحكم . . لا تنخدعوا بهذا الكلام ، وما نحن وبنو كلاب إلا كالعشيرة الواحـــدة .

* * *

كان غاشم يتقدم بفرسانه وقد أعد عدته للنزال . . وإذا هو يرى فارسا يقبل نحوه على جواد أدهم ، له غرة كالدرهم ، ولما كان فى مواجهته قال الفارس القادم بصوت قوى وفى ثقة وثبات :

— أيها السيد الهمام ، اتق الله فى دماء المسلمين ، واعلم أن الدنيا ليست باقية ، وكل نفس ستسأل عما قدمت . ونحن قدمنا قاصدين مكة والبيت الحرام للاحتكام ، وأنا ورب البرية ، العالم بكل سر وخفية ، بريئة نقية ، ولكن هكذا قدر الله ، والله على كل شيء شهيد .

فعلم غاشم من هذا الكلام أن الفارس الذى برز له ما هو إلا ذات الهمة ، فتعجب من أمرها ، ورق قلبه إليها ، فنادى الحارث وقال له :

— أخرج إليها ، فإن كانت مظلومة فانرب الكعبة لا ينصرك عليها ، وإن كانت كاذبة فأنت تنتصر عليها .

فلما سمع الحارث ذلك من غاشم ارتبك وحار فى أمره وأيقن أنه إن خرج إليها فستقتله ،فقال له :

— يا أمير ، نصطلح و ندع الخصومة .

— لا بد أن تبرز إليها .

— أيها الأمير ، لا تحسبن هذه المرأة مثل غيرها من النساء ، إنها قتلت الشجعان وأذلت الرجال ، فلا تعرضنى للوبال .

فضحك غاشم وقال :

— إلى هذا الحد . . هذه المرأة ؟

— نعـم .

ضحك غاشم مرة ثانية ، ثم كف عن الضحك وقال جادا :

— إن عندى رجلا من السود الجبابرة اسمه «الكباش» لا يغلبه غالب .. فإن جعلت له شيئاً خرج اليها وأخذ رأسها .

— جعلت له هذا الجواد الذى أركبه ، وهو من جياد الخيل ، وثمنه خمسمائة دينـار .

فصاح غاشم : يا كباش .

فجاء الكباش على جمل كأنه جبل ، وفى عنقه سلسلة من الحديد ،ويبدومنظره كأنه شيطان مريد .

وقال كباش بصوت أجش .

— يامولاى ، ما تشتهى ؟

أشار له غاشم إلى ذات الهمة وهى تجول فى الميدان وقال له :

— أريد منك رأس هذا الفارس الساعة .

— سمعاً وطاعة .

وقصد السكباش إلى ذات الهمة ، وكان قد علم بقصتها ، فصاحت به :

— ويلك .. من انت ؟

— أنا من تحيين ..

— ماذا تعنى .. ويلك !

— أنا شبيه مرزوق ..

فاستشاطت غضبا . وصاحت صيحة ادهشته وأرعبته .. ولم تمهله فعاجلته بطعنة فى صدره نفذت إلى ظهره. فصرعته على الأرض كالبعير المذبوح .

كان غاشم يرقب القتال بين ذات الهمة والسكباش . ويعجب مما تبديه من فنون الضرب والنزال ويقول فى نفسه : كيف تكون هذه من ذوات الحجال وهى على هذا الحال .. وهل تحسن النساء غير تزجيج الحواجب وجر الأذيال .. آه لو تكون لى هذه المرأة زوجة .. إنها إلى جانب شجاعتها وبراعتها فى القتال ذات حسن وجمال .

ثم أقبل على الحارث وقال له :

— ويحك يا حارث .. لقد أعجبنى قتالها وفعالها ..

وبعد فترة صمت قال :

— طلقها يا حارث ..

— ولم ؟

— أريد أن تكون لى قرينة ..

لم يجب .. علم أن الرجل قد فتن بذات الهمة ، وأنه لا فائدة من مناقشته ،ولو قاومه فى ذلك فسيسقيه كأس الردى.. وأيقن أنه وقع مع من هو أشد ظلما من أبيه ظالم .. فلجأ الى المداراة والملاينة قائلا :

— أيها الأمير الهمام ، إن الله قد طلقها منى .. لأن رأسى ما اجتمع مع رأسها على وسادة قط .

— أنا لا أعرف هذا الكلام.. انطق بالطلاق.. إنها ماتصلح لك زوجة يا ابن ظالم وانما تصلح لأمير العرب غاشم ، مهلك الأبطال يوم التصادم .

خاف الحارث ، ولم يجد الا أن يملك نفسه ، وقال :

— أيها الأمير ، دونك وإياها ، فان ظفرت بها فهى منى طالق ، وإن لم تظفر بها فأنا وانت فى العجز سواء ..

— حقا ما قلت ، وقد أنصفت .

* * *

أقبل غاشم على شيخ من عشيرته معروف بالعقل والحكمة ، وحدثه فى أمر ذات الهمة ورغبته فى الزواج منها ، وحكى له ما جرى بشأنها بينه وبين الحارث ، وقال له:

— عجل الى أبيها مظلوم ، وقل له إن الأمير غاشم يطلب كريمتك وهو راغب فى مودتك، وأوضح له أن هذا فى صالحه وصالح ابنته ، لأن العرب ستقول لولا علم غاشم أن ذات الهمة بريئة مما رميت به ماطلبها لنفسه وتزوجها. وقل له إنى أنصره على أخيه ظالم حتى ينفرد بالإمارة فى بنى كلاب ، وله منى ما يشاء من الأموال . واقصد الى ذات الهمة وقل لها : قد سعد نجمك وعلا شأنك ، فالأمير غاشم قد

طلبك له زوجة وطلقك من الحارث ، وهو يبذل لك من الصداق مائتائين ، ويسلم اليك أعداءك ، وإن شئت ضرب رقابهم جميعا بين يديك . وإن أبيت ورفضت طلبه خرج اليك وأخذك قهرا .

فقصد الشيخ الى مظلوم وألقى عليه السلام ، فرد تحيته وأكرمه ، وأبلغ الشيخ رسالة غاشم الى مظلوم ، وقال له :

— فماذا أنت قائل ؟

فتحير مظلوم ثم قال :

— إنى أود تلبية الأمير غاشم الى ما طلب ، وأحب أن تكون ابنتى زوجة له ، ولكن الأمر بيدها فامض اليها وأعد عليها ما قلته .

فمضى الشيخ الى ذات الهمة ، وأعاد عليها الكلام ، وزاد عليه ما كلفه غاشم أن يقوله لها ، فقالت ذات الهمة :

— اعلم أيها الشيخ المتجمل فى الخطاب أنى لو كنت ممن يرغبن فى الرجال لكنت أرحب بالسيد الذى أرسلك ، ولكنى نذرت نفسى للجهاد فى سبيل الله ، وما أركب الخيل لطلب فخر أو مجد فى هذه الدنيا .

— إن زواجك بهذا الأمير ينفى عنك التهمة ويكشف عنك الغمة .

— يا هذا ، ما يكشف غمتى إلا عالم سريرتى .

— إذا كنت مصرة على الرفض فائذنى لى أن أبلغك بقية الرسالة ..

— قل ما عندك أيها الشيخ .

— إنه ينذرك .. إن لم تجيبيه الى طلب الزواج فانه يأخذك غصبا .. ويبيد أهلك طعنا وضربا .

— والله ما يقدر على ذلك أبدا ، ولولا اختلافنا ماداخلكم الطمع فينا .

وبعد هنيهة قالت :

— اسمع أيها الشيخ ، إذا كان صاحبك يريد زواجي فليعلم ماأريد من صداق..

— وما تريدين ؟ إنه يدفع اليك كل ما تطلبين .

— لا ، لا يدفع شيئا .. إن صداقى هو أن يقهرنى فى الميدان ويغلبنى فى الحرب والطعان ...

ooo

نزل غاشم إلى الميدان ، وبرزت إليه ذات الهمة ، وحمل كل منهما على الآخر ، وجعل يطاعنه ويضاربه . وهال غاشم مارأى من ذات الهمة ، فصاح بها ، وصاحت به وأخذا فى الكر والفر ، حتى ثار حولهما الغبار ، واختفيا عن الانظار . ولم يزالا على هذا الحال ، لا ينال أحدهما من الآخر أى منال ، حتى أخذ النهار فى الزوال ، ونادى المنادى بينهما بالانفصال ، وفى غداة غد يكون القتال والنزال .

وفى صباح اليوم التالى ركبت ذات الهمة جوادها ، وأراد قومها أن يحملوا معها ، فمنعتهم مصرة على أن تلقاه وحدها . وخرج غاشم إلى الميدان ، واشتبك الاثنان فى أشد قتال ، وكان القوم يراقبونهما مختلفى الانفعال .. فإن رأى ظالم وولده غاشماً يحمل على ذات الهمة فرحا واستبشرا وقال أحدهما للآخر : هذا آخر يوم لها فى هذه الدنيا .. على حين يقلق مظلوم على ابنته ، وكذلك أنصاره وعشيرته.

واشتد قلق مظلوم حينما رأى غاشما ينقض على ذات الهمة بضربة جمع لها كل قوته .. ولكن ويا للعجب .. ولكن ذات الهمة تقفز بجوادها من أمام غاشم فإذا هى إلى جانبه ، ويرفع الجواد رجليه الأماميتين كأنه يريد أن ينقض بهما عليه ، وتهوى ضربة غاشم بشدة فى الفضاء ، فينكفى على سرج فرسه ، فتصيح به

ذات الهمة : خذ حذرك ياغاشم : وخذ هذه منى .. خذها يا ظلوم وأنا فاطمة بنت مظلوم .. فما رفع رأسه حتى اطارته الضربة عن جسده .

فكبر الأمير عبدالله ومن معه ، وأشار بالحملة على رجال غاشم ، فكروا عليهم وكانوا بعد قتل أميرهم قد انحلت عزائمهم ، ولم يطيقوا القتال غير ساعة ، فطلبوا السلام ، وأجابهم الأمير عبدالله إلى ما طلبوا .

* * *

- ٢٥ -

أقبل الأمير عبدالله على ظالم وولده الحارث ، وقال لهما :

— اسمعا منى ، واعترفا بهذا الولد ، واتركا الخلف والنكد .

والتفت إلى الحارث قائلا :

— ولعلها ياحارث ترجع إليك ، ويكون الولد سببا لعقد أواصر المودة بينكما .

فقال الحارث :

— هيهات أن أعترف أنه ولدى ، فهذا لا يكون أبدا ولو شربت كأس الردى ..

وقال ظالم :

— لقد صرنا فى مكة ، ولا بد لنا من الدخول إلى بيت الله الحرام ؛ وليس لنا الآن غير الاحتكام .

وقال عقبة :

— يا أمير ، بعد أن وصلوا إلى هنا ليس فى رجوعهم صواب .

وبلغ هذا الحديث ذات الهمة فقالت :

— غدا يظهر الأمر الواضح ، ويهتك الله أصحاب الفضائح .

وشاع الخبر فى مكة ، وكثر كلام الناس فيها ، وكان أصحاب الفضول يمرون بمضارب بنى كلاب حتى يروا ذات الهمة ، وهم لا يدرون أظالمة أم مظلومة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى وجهها ويقول قائلهم: وحق الكعبة ، ماهذه إلا امرأة صالحة نقية ..

* * *

ليلة وصولهم إلى مكة .. لم يستطع مظلوم أن ينام من كثرة الهواجس ، وخشية أن يجىء الاحتكام بما ليس فى صالحهم ، فخرج من مضربه وقصد إلى ابنته ذات الهمة فى خيمتها ، وكان ذلك عند الفجر ، فرآها تصلى وتدعو الله أن يظهر الحق ويكشف كربتها .

كان عازما أن يصارحها بما فى نفسه من الشكوك ، وقد أدار فى نفسه مايريد أن يقوله لها .. كان يريد أن يقول : يا ابنتى ، أطلعينى على الحقيقة ، فإن كان هناك من غلبك على أمرك فإننا ندبر أمرنا بحيث لا نعرض أنفسنا للفضيحة أمام العراف والناس ..

ولكن .. عندما دخل الخيمة ورآها تصلى وتدعو ذلك الدعاء ذهب مابنفسه وخف عنه ما أزعجه وأقلقه . وظل معها حتى خرجا إلى الكعبة ، وجعل كل منهما يطوف بها ويدعو .

قال مظلوم ضارعا :

— يارب لا تفضح شيبتى ، واحفظ كرامة ابنتى ..

وقالت ذات الهمة وقد سمعت دعاء أبيها :

— يارب ، هذا قدرك وإنى راضية به ، يارب ، أنت عالم بحالى ومطلع على أسرارى ، أبعد صلاتى وصيامى ونسكى وجهادى أميل إلى الخطيئة والعصيان ؟ .. يارب ، أنت خلقت ولدى أسود ، فبيض وجهى ، وسود وجه المفترين على .. يارب ، أنت تعلم أن السواد ليس سواد اللون ، وإنما سواد الطوية والقلب ..

ثم حضر الأمير عبد الله وظالم وابنه الحارث ومظلوم ومرافقوهم من بنى سليم وبنى كلاب، كما تجمع عند الكعبة كثير من أهل مكة الذين علموا نبأ هذه الحكومة، ثم جاءت حاضنة « عبد الوهاب » وهى تحمله وقد تطلعت اليه الأنظار ترمقه فى صمت وفى همس .. وأتى العراف يمشى بتؤدة فى بردة يمانية ، وجلس على كرسى عال أعد له ، وتقدمت ذات الهمة وقالت بعد أن حيته :

— إنى امرأة ، ولكنى لا أركن إلى الذل والهوان ، ولا أعبأ الا بالعمل الصالح الذى أنال به من الله الرضوان .

قال العراف :

— اعرضى قضيتك بصدق ، ولن نحكم الا بالحق .

— اعلم ياسيدى أن هذا الولد ابن هذا الانسان ، الذى رمانى بالفجور والبهتان فاحكم بيننا بما يظهر لك من البرهان .

طلب العراف أن يدنو منه الحارث ، فوقف هذا أمامه ، وسمع العراف كلامه ثم تأمله وطلب الولد وراح يفحصه .. ثم رفع رأسه وقال :

— يامعشر الناس ، قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش ، ومن هذه الجهة يكون هذا الولد ابن الحارث ، ومن جهة أخرى قد تبين لنا أن عينيه كعينيه ، وكذلك المعاصم والشمائل ، والأطراف والأنامل ، فانظر ياحارث ما أنت فاعل .

زعق الحارث :

— أيها الشيخ ، إنك خرفت من كثرة السنين وطول الزمان ، وما قولك هذا إلا من الزور والبهتان ..

وبرز « عقبة بن مصعب » من بين الصفوف ووقف إلى جانب الحارث يقول :

— هذا كلام لا يسمع فى هذا الزمان ، إنه لا يوافق الشرع والأديان ، كيف يخرج السود من أصلاب البيض ؟ وما الفرق إذن بين السادة والعبيد ؟

واستراح اليه الحارث ، فقال وهو ينظر اليه نظرة شاكرة لتأييده :

— نعم يا عم ، قل لهم .. هذا الولد لا جنسه جنسى ، ولا لونه لونى ، ومع ذلك يقال إنه يشبهنى . .

وانصرف العراف ، وانفض الجمع ، وراح كل واحد يعلق بما يتراءى له ، واختلطت الأصوات وانبهمت فما يبين منها إلا مثل هذه الكلمات.

أسود ، أبيض ، فاجرة ، بريئة ، عراف ، صادق ، مخرف ، السيف ، الولد ، اسمه عبد الوهاب ، العبد مرزوق ، عقبة المنافق ، فتنة ، حرام ، ظلم ، ظالم ، مظلوم ...

وانقسمت القافلة فى عودتها إلى قافلتين . . .

- ٢٦ -

استمر النزاع بين الفريقين : فريق ذات الهمة ، وفريق الحارث ، حتى شغلهم عن حرب الروم ، و خشى الأمير عبد الله أن يدوم هذا الحال ، فيفشل العرب وتتفرق كلمتهم ، وينتهز الروم الفرصة ويهجمون على « ملطية » لاستعادتها وإخراج العرب منها . فجمع وجوه القوم وأهل الرأى . وشاورهم فى الأمر . فأشاروا بالمسير إلى بغداد لعرض القضية على الخليفة .

وشدت الرحال . واجتمعت الأطراف المختلفة فى قافلة واحدة وجهتها العراق . ولحرارة الشمس وشدة القيظ فى الصحراء كانوا يقيلون من الظهر حتى المغرب فى خيام يضربونها فى المكان الذين يصلون إليه . ويسيرون الليل والشطر الأول من النهار .

وكان عقبة المنافق يلازم الحارث ، ويتحدث معه فيقوى فى نفسه الشك فى ذات الهمة ويحذره من الرضوخ لأى حكم بإقرار نسب ابنها إليه . قال له ذات يوم :

— لا تقر أمام الخليفة بهذا الولد الذى حكموا بأنه ولدك . . هذا كلام لا يوافق الشرع . . فقد قرأت الكتب وحفظت العلوم . وذلك الذى قالوه لا يؤيده علم ولا دين .

— والله يا فقيه . ما أنا رائح إلى بغداد إلا لأجد فى الطريق فرصة لقتل هذه الفاجرة وقتل ولد الزنا الذى تنسبه إلى . .

— انتظر حكم الخليفة . .

— لا أظن إلا أنه سيحكم لها . .

وأراد المنافق أن يبث فى نفس الحارث شيئا . . فقال :

— والله إن شد الزنار والمقام فى بلاد الكفار لخير من الذل والعار .

* * *

وصلت القافلة إلى بغداد . وضربت الخيام على شاطىء دجلة . وعلم بها الخليفة فأمر بإرسال الطعام إليهم والعلف إلى خيولهم . وفى الصباح ركبوا إلى قصر الخلافة . واستأذنوا فى الدخول . فأذن لهم . فترجلوا ودخلوا .

كان الخليفة « المهدى » جالسا على كرسى الخلافة . وقد ساد الصمت والسكون بعد أن سلم فرسان العرب وجلسوا . وقد وقف الصغير « عبد الوهاب » بين يدى أمه « ذات الهمة » .

وظل الجميع ساكتين حتى قال المهدى مخاطبا الأمير عبد الله :

— ما أخباركم فى ملطية ؟ وما أخبار الروم ؟

— يا أمير المؤمنين . قد شغلتنا عن الروم قضية أثارت الفتنة بين المسلمين . ولم نجد لها حلا يرضى الطرفين . فجئنا إلى حضرتكم لكى تفصلوا فى هذه القضية .

— ما هى ؟

— هى قضية ذات الهمة وولدها الذى أنكر الحارث نسبه . .

— سمعت أخبارا عن هذه القضية . وأريد أن أسمع منك تفصيلاتها .

وقص الأمير عبد الله على الخليفة القصة من أولها إلى آخرها . وكان المهدى فى خلال ذلك يتأمل « عبد الوهاب » . وما إن فرغ عبد الله حتى أشار الخليفة إلى الصبى ليقبل عليه ثم حمله وأجلسه على ركبته وقبله بين عينيه . .

وكان فى مجلس الخليفة جماعة من العلماء والقضاة التفت المهدى ناحيتهم قائلا :

— فى أى شيء كنت أحدثكم قبل دخول الفرسان ؟

قالوا :

— استدعيتنا يا أمير المؤمنين لتقص علينا رؤيا رأيتها . ولم تفعل بعد ، إذ دخل هؤلاء . .

فقال المهدى فى غبطة ظاهرة :

— الله أكبر .. هذا الصبي (مشيرا الى عبد الوهاب) كان شريكى فى الرؤيا

قال أحد القضاة :

— كيف كان ذلك يا أمير المؤمنين ؟

— فى ليلة من الليالى الماضية صليت العشاء ونمت ، فرأيت ابن عمى محمدا صلى الله عليه وسلم ..

— عليه الصلاة والسلام ..

— كان فى يد رسول الله عزق (سباطة) رطب جنى ، والى جانبه هذا الصبى هو بعينه .. وأمرنى بالدنو منه ففعلت ، وصار يعطينى رطبة ويعطى الصبي واحدة قلت :

— يا رسول الله ، من هذا الصبي الذى تقسم بينى وبينه هذا الرطب ؟

— غلام مظلوم ، اتهمت أمه زورا وبهتانا . سيعوضه الله من شقاء الدنيا بنعيم الآخرة . يبذل نفسه فى طاعة الله ، وبه تسير فى الدنيا كلمة الله . فاذا حضر بين يديك فانصره على عدوه .

ذهلت ذات الهمة من فرط السرور ، وعقل لسانها فلم تدر ماذا تقول .. وقال مظلوم : حمدا لله وشكرا لك ياأمير المؤمنين ..

وقد تهافت كثير من الحاضرين على عبد الوهاب وجعلوا يحملونه بين أيديهم ويداعبونه ويقبلونه .

أما الحارث وأبوه ظالم فقد اكفهر وجهاهما .. وقال الأمير عبد الله للحارث وكان يجلس بجواره :

— أتريد أكثر من ذلك ؟ احمد الله على أن أظهر لك الآن وجة الحقيقة فيما قاسيت الشك فيه زمنا ..

فقال الحارث وهو لا يزال فى كمد :

— أنا يا أمير لا يميل طبعى الى هذا الكلام ..

والتفت المهدى الى عبدالله والحارث ، وسمع حدة الحوار بينهما ، فقال للحارث :

— ما حالك وقد صح البرهان وشهد لعبد الوهاب خير ولد عدنان ؟

فقال الحارث معاندا :

— يا أمير المؤمنين ، لو قطع جلدى بالحديد ما اعترفت بأولاد الزنا والعبيد .

فغضب الخليفة وقال : هذا كلام من طغى وبغى وأبى شريعة الاسلام . ثم صاح ملتفتا الى الحراس : خذوه . فجروه الى السجن ..

وساد صمت وسكون قطعهما عقبه المنافق بأن وقف أمام الخليفة وقال :

الحمد لله الذى شد أزر المسلمين بمولانا أمير المؤمنين ، سليل بنى العباس المطهر من الأرجاس ، من أوقدت به مصابيح الاسلام ، وصارت طاعته فرضا على جميع الأنام ..

ولما أكمل عقبه خطبته . . امتعض منه من يعرفون حقيقته ، وأعجب به باقى الحاضرين وسر منه أمير المؤمنين . فنظر الى الامير عبد الله قائلا :

— من هذا يا أمير العرب ؟

— هذا ابن عمنا وفقيهنا عقبة بن مصعب .

فقربه الخليفه ، وأمر له بخلعة . ثم أمر بتوزيع الهدايا على الأمير عبد الله وذات الهمة وباقى فرسان العرب . وخص عبد الوهاب بحلة مذهبه مرصعة بالجوهر وعهد بخدمته والقيام على أمره الى عشرين رجلا من الحراس السود الأشداء . فيهم عملاقان هائلان أسم أحدهما « نافع » والآخر «ميمون الجماس» وقد لقب بالجماس لأنه كان فى حجم الجاموسة .

ثم أصدر الخليفة أمرا باقرار العرب على ملطية وأن يكون عبد الله بن مروان أمير بنى سليم . وعبد الوهاب أمير بنى كلاب على أن تتولى أمه ذات الهمة الإمارة حتى يكبر .

وقبل أن يرحلوا الى ملطية قصد الأمير عبد الله الى الخليفة فشفع عنده للحارث فقبل الخليفة الشفاعة وأمر بإطلاق سراحه .

- ٢٧ -

كان ظالم وابنه الحارث ومن تبعهما من بنى كلاب يسيرون منعزلين عن القافلة فى عودتها من بغداد الى ملطية . وقد انضم اليهم عقبة المنافق . وأخذ مكانه فى السير بين الأب وابنه . قال لظالم :

— على أى شىء عولت ياوجه العرب ؟

— قل لنا أنت يافقيه..ماذا نعمل؟ ماذا نعمل بعد ماوقع لنا من الخليفة وإكرامه لولد الزنا . . ؟ هل بقى لنا رأس يرفع بين العرب أو كلمة تسمع بين أهل الحسب ؟

وقال الحارث :

— إنى أريد أن أعود إلى الحجاز ، وأجمع فتيان البادية ، ونقطع الطرق ، ونخرب البلاد ، ونسفك الدماء ، ونأخذ أموال القوافل ونقلق المهدى وننشر الرعب فى دولته .

وسكت ظالم وعلى وجهه علامات الموافقة .. ثم قال لعقبة :

— أريد منك أيها الشيخ كتمان الحال حتى نبلغ من الأعداء الآمال .

— لك على ذلك ، بلغك الله آمالك ، وهل ترضى بالذل نفس أبية ونخوة عربية ؟

وخطا عقبة خطوة ثانية فيما يريد أن يبثه فى نفس ظالم وابنه .. فقال :

— إن الرجوع إلى البادية وترك الأعداء فى ملطية ليس من الصواب ، فإن ذات الهمة يخلو لها الجو ويعظم أمرها ولا سيما حينما يكبر ابنها ويصبح من الفرسان ..

قال الحارث :

— وما الرأى عندك يافقيه العرب ؟

— لا أرى دخولكم بلاد الروم أمرا مذموما ..

— كيف ندخل بلاد الروم ؟

— تذهبون بجيشكم إلى القسطنطينية ،وتنضمون إلى ملكها، وتتعاونون معه على قتال ذات الهمة وجيشها ، وسيرحب بكم وينزلكم أكرم منزل ..

— ولكن هل يقرنا الروم على ديننا ؟

— إن أقمتم على دينكم فما يكرهكم أحد على غيره ، وإن شئتم أن تتنصروا فما عليكم جناح .. بل تكونون عندهم أعز من الأرواح ..

أطرق ظالم وابنه مفكرين .. وقال عقبة :

— لقد قرأت الكتب وتعلمت العلوم والحكمة ، فرأيت الأديان متقاربة والناس متشابهة وسأقيم فى ملطية أكاتبكم سرا وأبلغكم مايجرى فيها .

* * *

جمع ظالم أعوانه وأنصاره من بنى كلاب فى مكان بعيد عن ملطية ، وخاطبهم قائلا :

— يابنى عمى ، أنا ظالم بن الصحصاح ، والطاعن بالرماح ، نفسى شريفة ، وهمتى عنيفة ، فكيف أصبر على الضيم والهوان ؟

— جعلنا فداك يا أبا الحارث .. أى ضيم نزل بك ؟

— قد سمعتم ماجرى لى فى بلاد العراق ، وما نزل بولدى الحارث هناك ، إذ نصر المهدى عليه تلك الفاجرة ، وأمر بضربه وإدخاله السجن . واعلموا أننى لن أسكت عن هذه العاهرة ، وولدها الأسود الزنيم ، فهل أنتم سامعون لى ومطيعون فيم قد اعتزمته ؟

— نحن يا أمير بين يديك لا نبخل عليك بأرواحنا ، وسترانا فى طاعتك أسبق من الخيل فى جريانها والطير فى طيرانها .

— اعلموا أننا قاصدون الى القسطنطينية ، نجمع هناك الجيوش و نبلغ بها مانريد من التغلب على الأعادى و امتلاك البلاد ، ولا بد من غزو بغداد وتأديب المهدى ، حتى يعلم الجميع أن مثلى لا يهان .

— افعل ما تريد ونحن لك مثل العبيد .

— خذوا الأهبة حتى نسير فى أول الليل بالنساء والابل والخيل ، ولا يصبح الصباح الا ونحن فى بلاد بعيدة ، ومن لحق بنا ضربناه بالسيوف وسقيناه كأس الحتوف .

* * *

بلغت الأمير عبدالله أخبار ظالم ورحلته بأهله ورجاله إلى بلاد الأعداء ، فاغتم وغضب غضبا شديداً وكتب إلى ظالم كتابا يخوفه فيه من الله ، ويحذره من اتباع هواه ، ويسأله العودة ، ويعده بالمودة . وأرسل الكتاب مع رسول من بنى سليم . فرد عليه ظالم بكتاب يقول فيه :

« أما بعد فقد وصلنى كتابك ، ووقفت على شقشقة لسانك .. فإن كنت تريد عودتنا إليكم فاقبض على ذات الهمة وولدها الأسود ، وابعث بهما إلينا .. »

فلما قرأ عبد الله كتاب ظالم على وجوه القوم ، وفيهم ذات الهمة ، نهضت قائلة فى المجلس الحافل و نادت :

— أيها السيد الرئيس ، اذا كان الأمر يتعلق بى و بولدى فلا ينشغل بالك ولا ينبغى أن يضيق صدرك .. سلمنا اليه .. واعلم أنى طيبة النفس بما تفعل .

فترددت فى المجلس أصـوات إعجاب وتأثر وسخط على ظالم والحارث ، قطعها عقبة المنافق ، إذ قام ، فشخصت اليه الأبصار ، فقال :

— أيتها الأميرة المصونة ، والله لا نسلمك الى أعدائك أبدا .. وكيف نسلم ولدك وقد بدت نجابته وشهد رسول الله ببراءته ..

فشكرته ذات الهمة ، وقال له الأمير عبد الله :

— الأمر كما قلت أيها الفقيه الأجل ، جزاك الله خيرا ..

— ثم اتجه الى الجميع وقال :

— علينا أن ندبر اللحاق بظالم والحارث ورجالهما قبـل أن يدخلوا الى القسطنطينية .

قال أحد الرجال الذين أتوا بأخبارهم :

— إنهم يريدون أن يدخلوا فى ذمة ملك الروم ويحاربونا معه .

علت وجوه القوم دهشة ، وترددت أصوات الاستنكار .

وقالت ذات الهمة :

— إن لم ندركهم قبل أن يفعلوا فسيكون لنا عدوان .. شرهما الذى انفصل عنا وخرج علينا .

وقال الحصين بن ثعلبة :

— أيها الأمير ، أسرع فمر بالاستعداد للمسير غداة غد حتى ندركهم قبل أن يبلغوا القسطنطينية وينضموا الى الروم .

قال الأمير :

— هيا يارجال ، وهلموا يا أبطال ، أعدوا العدة ، وخذوا الأهبة .

وفى الصباح ، سار الامير عبد الله فى ألف فارس يقتفون أثر ظالم ..

* * *

أسرع عقبة فكتب الى ظالم يخبره بما وقع ، ويحثه على الإسراع فى السير ، وقال له فى الكتاب :

إياك أن تبيت فى مكانك ، فتهلك أنت ومن معك . ثم بعث بالكتاب مع غلام له يثق به .

جد ظالم ومن معه فى السير حتى وصلوا الى مكان قريب من القسطنطينية اسمه « مرج الديباج » فنزلوا به ، وخرج اليهم حاكم المرج وسألهم : من أنتم ومن أين أتيتم وإلى أية جهة تقصدون ؟ قال ظالم : إنا سائرون إلى الملك «لاوون» لنكون من أعوانه ومن جند ديوانه .

وأرسل ظالم إلى لاوون رسولا من عنده يقال له « ذوعقل » ليشرح له قصته وأقام ينتظر الجواب .

وأما الأمير عبد الله ورجاله فإنهم لم يستطيعوا اللحاق بظالم وأعوانه ، فرجعوا آسفين .. وكان عبد الله يسير حزينا وبجانبه الحصين مفكرا مطرقا ، قال عبدالله :

— لقد ضاع تعبنا ، وما وصلنا الى طلبنا ، وقد أفلت الخونة منا ..

فرفع الحصين رأسه وقال :

— والله مارحل ظالم الا والخبر وصل اليه من عندنا .

— صدقت ، والآن علينا أن نسرع فى العودة قبل أن يعلم الروم بأمرنا ، وندبر أمرنا فى ملطية .

— ٢٨ —

قال الملك لاوون لوزيره :

— أخشى أن يكون مجىء هؤلاء العرب الينا حيلة من الحيل، فكيف نأذن لهم بدخول آلاف من الفرسان إلى البلد و نأمن جانبهم ؟

إنهم سينزلون بظاهر البلد فى خيام ، لأنهم بدو لايحبون الإقامة بين الجدران . وعلى أية حال عندى فكرة تكشف لنا حقيقة أمرهم إن كانوا صادقين فى دعواهم .

— وما دعواهم ؟ .

— قالوا إنهم يريدون أن يخرجوا من دين الاسلام ، ويدخلوا فى دين المسيح ويدافعوا عن المسيحية .

— وكيف نعرف صدقهم فى ذلك .

— إن دينهم يحرم عليهم شرب الخمر ولحم الخنزير ، فنحن نقدم لهم شيئا من هذا و تلك..فإن أكلوا وشربوا عرفنا أنهم صادقون فى نياتهم ثم تابع الوزير كلامه:

— واعلم يامولاى الملك أنهم ما أتوا إلى بلادنا إلا من شدة وقعت بهم أو ضيم نالهم ، لأنى سمعت أن العرب فى ملطية قد اختلفوا ووقع السيف بينهم ، وهذه هى الفرصة التى تمكننا من القضاء عليهم .

— حسن أيها الوزير ، سر اليهم و نفذ خطتك .

* * *

قال ظالم لوزير لاوون :

— ياشيخ ، مادخلنا هذه الديار الا ونحن مستعدون لـكل ماتطلبون..وسائر ماقلته نفعله .. نأكل مما تأكلون ، ونشرب مما تشربون ، ونجاهد كما تجاهدون .

وخرج رجال الدولة من القسطنطينية يستقبلون العـرب القادمين ، وأقيمت الزينات ، واحتشد الناس فى طريقهم إلى قصر الملك ، ولما شاهد ظالم كل ذلك فرح فرحا عظيما وقال لولده الحارث :

— ما نـكون هنا إلا ملوكا ..وأما الأديان ياولدى فهى متقاربة ، كما قال عقبة وهو العالم العارف بها . .

قال الحـارث :

— ياأبت ، افعل ماشئت ، وأنا معك فى كل ماتفعل ، ومايهمنى إلا قتـل ذات الهمة وولدها ..

واستقبلهم الملك بترحيب وإكرام ، وأهدى اليهم الهدايا ، ثم عادوا إلى ظاهر البلد حيث أعدت لمعسكرهم المضارب والخيام ، وأصبحوا من جند « لاوون » تجرى عليهم الأرزاق والرواتب ، ويرسل الطعام إليهم والعلف إلى خيولهم .

وكان ظالم وولده الحارث يترددان على قصر الملك ويحضران مجلسه وينعمان بإكرامه ، وقد زوجها من بنات كبراء الروم ، وكانت زوجة الحارث بنت بطريق من خاصة الملك ، وكانت ذات حسن وجمال ، فسلا بها عن ذات الهمة ،ولم يعد يذكر هذه إلا مقرونة بالرغبة فى إيذائها وإرادة قتلها وقتل ولدها .

— ٢٩ —

اجتمع الأمير عبد الله بأهل الرأى من العرب فى ملطية ، و نظروا فى الموقف الذى نشأ من هرب ظالم وولده الى ملك الروم ، وقد رأوا أن عدوهم بعد انضمام ظالم اليه صار قويا ، وأصبح عليهم أن يستعدوا له ، وأن يطلبوا من الخليفة إمدادهم بالفرسان ، وأن يذهب أحد منهم إلى بادية الحجاز ليأتى بمزيد من فرسانها .

وقال الحصين بن ثعلبة :

— إنى أرى الأمر يحتاج إلى التدبير والحيلة كما يحتاج إلى كثرة الجنـود والأبطال .

قال عبد الله :

— هات ماعندك ياحصين .

— يجب أولا أن نأخذ ظالم وجيشه على حدة ..

وسكت فترة ساد الصمت فيها الجميع ، ثم قال :

— لقد أتتنا الجواسيس بأنهم يقيمون فى معسكرهم خارج القسطنطينية منعزلين عن الروم ، فعلينا أن نجرد حملة قليلة العدد من أبطال صناديد ، تهاجمهم ليلا وتوقع فيهم السيف ، على أن يكون الهدف الأول ظالم والحارث ، وبتر الرأس يقضى على الجسد .

قالت ذات الهمة :

— أنا لهـا ..

وقال عبد الله :

— والحصين معك ..

قالت ذات الهمة :

— لا يامولاى ، أريد أن تكون الحملة كلها من بنى كلاب ، حتى لا تكون فتنة بين القبيلتين (الحصين من بنى سليم) . بنو كلاب يؤدبون المارقين من بنى كلاب .

قال شيخ من بنى كلاب :

— أشرت بالصواب والأمر الذى لا يعاب ..

وقال الحصين لذات الهمة :

— لا تأخذى معك كثيرا من الفرسان ، حتى لا تظهروا فى شكل جيش تسبقكم اليهم أنبا ؤكم ، فيستعدون للقائكم ، يكفى مائة من الابطال ، تسيرون كأنكم قافلة مسافرة لا تبغى حربا ، فاذا اقتربتم منهم فبيتوهم ثم خذوهم على غرة وهم نائمون .. وليكن هجومكم من نواح مختلفة ، كل جماعة من ناحية ، حتى تنشروا الذعر فيهم ، اذ يخيل اليهم أنكم جيش كبير يطبق عليهم .

قالت ذات الهمة :

— نشكر لك حسن رأيك يا حصين ، وسنعمل بما أشرت به .

وركبت فى مائة فارس من أبطال بنى كلاب ، وسارت نحو القسطنطينية . ولما كانوا على مسيرة يوم منها رأوا عجاجة قد ارتفعت فى الجو حتى سدت الأفق ، فوقفت ذات الهمة تنظر .. ثم انجلى الغبار وظهرت من ورائه خيل صاهلة تعلو ظهورها فرسان صائحة ، على رأسهم فارس عليه درع من الزرد ، و بيده سيف مهند .. صاح هذا الفارس :

— قفوا .. من أنتم ؟

ظنوهم من الروم ، فقالوا لهم :

نحن عرب من رجال ظالم ..

فقال رجل بجانب الفارس الكبير :

— آ .. إنهم من العرب الذين جاؤوا الى كسرى ونزلوا فى حماه وصاروا من رجاله .

فقال الفارس :

— خذوهم ، واقتلوا من يقاوم ..

وبرزت له ذات الهمة ، وكانت فى زى رجل ، وأشارت اليه أن يبرز لها وأن يكف باقى الفرسان عن القتال حتى تنتهى المبارزة بينهما . فأجابها الى طلبها ، وصاح بها صيحة رددت الصخور صداها .. فصاحت به صيحة أقوى من صيحته . وحملت عليه ، والتقت به . وجالا فى المضمار وثار من حولهما الغبار ، حتى حجبهما عن الانظار ، وهدر الفارس وزمجر . فتلقته ذات الهمة بقلب كالحجر . وتضاربا بسيفهما ، وكل منهما يبدى من ضروب القتال ما حير الرجال . وفجأة صاحت ذات الهمة بصوت قوى مرعب : الله أكبر .. فاندهش وذعر .. فعاجلته بضربة وقعت على كتفه فشقته حتى الإبط ، وصاحت ثانية : الله أكبر .. وهى تجهز عليه بضربه أخرى ..

والتحم الفريقان . وقد وقعت الهزيمة فى قلوب الجيش الذى صرع قائده ففروا أمام العرب ، وتركوا خيولهم وأسلحتهم . فاستولى عليها العرب . وقسمتها بينهم ذات الهمة .

* * *

قال الوزير للملك لاوون .

— أبشر يا مولاى :. جاءت أخبار سارة .. قتل عدوك « ملك البرغل »

قال الملك مندهشا فى فرح :

— أحقا ما تقول ؟ من قتله ؟

— كان فى الطريق الى القسطنطينية لمهاجمتها بعد الانذار الذى وجهه الينا فالتقى بفرقة عربية لم تعرف بعد حقيقتها ولا وجهتها . واشتبك الفريقان فى معركة أصفرت عن قتله وهزيمة جيشه . وقد خف جنودنا والتقوا بالجيش المنهزم واوقعوا به . فقتل منهم من قتل وأسر من أسر . وفر الباقى .

— والفرقة العربية .. أين هى ؟ أنزلوهم فى ضيافتنا وأكرموهم .

مكثت ذات الهمة فى ضيافة لاوون سبعة أيام . وأفاض عليها الملك بالتحف والهدايا هى ومن معها من الفرسان . وأكرمهم غاية الإكرام . وفى اليوم الثامن أستأذنت الملك فى الرحيل . فأذن لها . وطلب أن تصحبها جماعة من الجيش . فأبت شاكرة . وقالت أنها لا تحتاج الى حراسة .

* * *

علم ظالم وولده الحارث بخبر ذات الهمة وحظوتها لدى الملك بعد ما قتلت عدوه « ملك البرغل » فاغتاظا من ذلك . وقال ظالم :

— لابد من قتل هذه الفاجرة .

— وكيف ذلك وهى فى أمان لاوون ؟

— لا بد أن ندبر لقتلها دون أن يعلم .

سكت الحارث انتظاراً لما يقوله أبوه ظالم ، فقال ظالم :

— تأخذ أنت الليلة خمسمائة فارس ، وتسير تحت جنح الليل ، وتكمن فى المضيق ، فإذا خرجت هى من القسطنطينية وسارت خرجت أنا خلفها فى خمسمائة فارس ، ولا نظهر لها ، حتى نشرف عليها ، فتطبق عليها من الأمام ، وأنا من الخلف

وكانت ذات الهمة قد بكرت فى الرحيل، وغذت السير، حتى وصلت إلى المضيق الذى يسكن عنده الحارث، ففوجئت بالحارث وجنوده يعترضون طريقها وقد رفعوا السيوف والرماح ... فقالت لأصحابها :

— هذا الحارث قد طلع علينا فى جنوده ورجاله، وليس لنا الآن غير القتال والاتكال على الملك المتعال.

وقالوا لها :

— والله يا أميرة، ما نسلم أنفسنا وفينا عين تطرف.

— احموا أنتم ظهرى، وأنا ألقاهم بسيفى .. ما أحلى القتال فى سبيل الله.

— واصطفوا وراءها، وتقدمت بجوادها تهجم عليهم وتنادى.

— كذبتكم ظنونكم وخابت آمالكم .. أقدم يا ابن ظالم نفسه وعادم عقله.

قال الحارث :

— والله يا عاهرة، لن تعودى سالمة ..

فأشعلها الغضب وحمية العرب، فعملت بالسيف فيهم، وجعلت تنثر الفرسان ذات اليمين وذات الشمال .. والحارث يبتعد عنها محتمياً بالرجال .. ولكنها شقت الطريق إليه وانقضت عليه وسددت الطعنة إلى صدره .. وإذا الصياح يعلو من خلفها وظالم ينادي :

— حان حينك يا فاجرة ..

وأطبق بفرسانه على ذات الهمة ورجالها، فقاتل هؤلاء قتالا شديدا، واستبسلوا فى الدفاع عن أنفسهم حتى قتل منهم أربعون.

فلما نظرت ذات الهمة ذلك الحال نادت فى الباقين من رجالها بصوت خفيض :
— اتبعونى إلى الجبل لنتحصن به ..

وجعلوا يشقون طريقهم بسيوفهم ، ويدقون اعنــاق من فى طريقهم ، حتى وصلوا إلى الجبل ، فنزلوا عن خيولهم وصعدوا إلى الجبل ، وصاروا يدحرجون عليهم الأحجار ويرمونهم بالسهام .

فلما رأى ذلك ظالم نادى فى رجاله :

— ويحكم .. ترجلوا خلفهم .

وما كادوا يفعلون حتى انهالت عليهم الأحجار والصخور من رأس الجبل ، فطحنتهم طحنا ، وصار الصاعدون يتدحرجون جثثا هامدة إلى السفح .

فنــادى ظالم :

— ياقوم ، دوروا حولهم من كل جانب ، وخذوا عليهم الطرق والمذاهب .

وهـكذا أصبحت ذات الهمة والستون فارسا الذين بقوا معها شبه محصورين فى أعلى الجبل ، وان كان أعداؤهم لا يستطيعون الصعود إليهم .

وراحت ذات الهمة تصلى وتضرع إلى الله تعالى أن يجعل لهم من هذا الحصار مخرجا ويكف عنهم كيد الأعداء . وظلت طول الليل تدعو وتبتهل ، فلما بدا نور الفجر أيقظت النائمين من أصحابها ، وجعلوا يتشاورون فيما يصنعون حتى ينزلوا من الجبل ويمضوا فى طريقهم . واستقر الرأى على أن تنزل هى وأربعون رجلا ، فيقاتلون أعداءهم ويبقى العشرون فوق الجبل يرقبون القتال ويرمون بالأحجار والسهام على الأعداء .

ونفذوا الخطة ، ولـكن الأعداء انقسموا هم أيضا فريقين : فريق الـكثرة أحاط بذات الهمة ومن معها ، والتحموا بهم فى قتال عنيف ، والفريق الآخر أخذ يصعد إلى العشرين من جهات متفرقة ويحاول أن يتفادى الأحجار والسهام بالميل عن اتجاه الرمى أو الزحف تحت مستواه ..

وبينما الحال على هذا المنوال إذا غبار يرتفع من نحو القسطنطينية ، ثم ينحسر عن فرسان من الروم يبلغون عدة آلاف ، على رأسهم بطريق كبير يرفع علما رسم عليه الصليب ، وما إن رأى هؤلاء القتال دائرا بين الفريقين حتى دخلوا المعمعة وحملوا على ظالم ورجاله ، ولم تكن الا ساعة حتى قتلوا منهم كثيرا وهزموهم. ونظر ظالم إلى ذلك فصاح بولده : عد بنا إلى ظهور الخيل ، ولنطلب النجاة قبل الليل .

وقد كفت ذات الهمة عن القتال ، ونال التعب منها ما نال ، وجعلت تتأمل مندهشة مما صارت إليه الحال ..

— يا من يأتى بالفرج بعد الشدة ، اجعل من أمرنا رشدا ، ومن ضيقنا فرجا ، إنك أنت المأمول والمرتجى ..

وما فرغت ذات الهمة من دعائها حتى رأت ذلك البطريق الفارس يدنو ، وسمعته ينادى :

— ياحملة القرآن وعباد الرحمن ، أبشروا من الله بالجنة والغفران .. وأرونا من هى فيكم الأميرة المجاهدة ، الراكعة الساجدة ..

فتقدمت إليه قائلة :

— أيها البطريق ، أنا التى تطلبها ، ومن على يديك جاءها الفرج .

— اعلمى أيتها الأميرة أننى ابن بنت الملك لاوون واسمى « يانس المتعرب » أنظرى إلى هناك بعيدا عند الأفق الشرقى ترى قلعة قائمة فى آخر الدرب .. هى قلعتى ، أعطاها لى جدى ، وهؤلاء خمسمائة فارس تحت إمرتى ، وسبب مجيئى إليكم عجيب ، فقد كنت البارحة نائما فى الحصن ، فرأيت فى المنام كأن على الحصن رجلا قائما يؤذن أذان المسلمين ، ولما فرغ من الأذان نادى :

— يا أهل هذه الديار ، انتبهوا واسمعوا .. اركبوا غدا لنجدة من هزت الليل بدعائها ، وأبكت السماء لبكائها ، وانصروها على أعدائها .

قالت ذات الهمة :

— الحمد لله الذى استجاب دعائى وساقكم إلينا .

ثم قالت للرجل :

— هل لى أن أسألك سؤالا ؟

— سلى ما شئت .

— لماذا سميت « المتعرب » هل تحب العرب ؟

— نعم ، لقد اختلطت بالعرب الذين جاءوا إلى ديارنا ، وتعلمت منهم اللغة العربية وأعجبت بفضائلهم وأخذت عنهم كثيرا من المعارف ، وتأثرت بعاداتهم وأخلاقهم ، ولهذا سمونى « يانس المتعرب »

— هل لى أن أسألك سؤالا آخر ؟

— سلى ما شئت ياسيدتى ..

— ما الذى أثر فيك من عادات العرب وأخلاقهم غير النجدة والمروءة؟

— عفوا ياسيدتى .. لا أستطيع أن أدعى انى صاحب نجدة أو مروءة .

— صنيعك معنا يدل على ذلك .

سكت يانس قيلا ثم قال مجيبا عن ذلك السؤال :

— يعجبنى من العرب تفاؤلهم وأخذهم من الحياة ماتعطيه دون يأس أو إعراض، وقد كنت زاهدا عازفا عن الزواج ، ونويت الرهبانية ، ولكن تأثرى بالعرب غيرنى..إن الزواج لا بد منه..عرفت أن نبيكم يحث عليه .

— ٣٠ —

« الزواج لابد منه » و « النبي يحث عليه » .

كانت هذه الكلمات وما أثارته فى نفس ذات الهمة .. هى شغل فكرها الشاغل وهى عائدة إلى ملطية .. حقا لماذا رفضت الزواج ونفرت من الزوج ؟

أكان ذلك لأن شخصية الحارث لم تكن حبيبة الى نفسها .

ولماذا إذن لم يتعلق قلبها بفتى آخر من فتيان العرب ؟

أم كان ذلك لأنها ثارت على وضع « الحريم » وطمحت نفسها للفروسية ، وأرادت أن تثبت للرجال جدارة المرأة بأن تكون معهم على قيد المساواة ؟

قد يكون هذا أقرب الفروض الى الحقيقة ..

ولم تنس نشأتها وطفولتها التى فرضت عليها فيها الذلة وعوملت فيها كجارية مملوكة .. فثار دمها العربى الحر الأصيل على هذا الوضع ، وتسلحت فى ثورتها بسلاح الرجل : الفروسية ..

ثم فكرت فيما أحاط بمولدها أنثى .. واغتمام الجميع بولادتها أنثى .. ونفيها الى أحضان جارية .. والتبرؤ منها ..

وفى ناحية أخرى .. فى بيت عمها ظالم .. كان الفرح بالمولود الذكر : الحارث.

فلتكن — هى التى حزنوا لمجيئها أنثى — شيئا أعظم من ذلك الذى فرحوا به لمجرد أنه ذكر .

ثم تذكرت ولدها « عبد الوهاب » إنها الآن لاتأسف على شىء مما كان فحسبها عبد الوهاب ..

إذا كان قد فاتها أن تكون زوجة كباقى الزوجات — إن كان لابد من الزواج — فإنها الآن أم .. أم عبد الوهاب .. الذى قال لها مرة : يا أماه إنى فارس من طبقتك .

ضحكت ، كما ضحكت عندما قال ، مسرورة مزهوة ، سرورا وزهوا لم تشعر بمثلهما قط .. إن شعورها بعبد الوهاب كفارس أنجبته .. يمدها بمزيد من القوة ..

إنها لن ترغب فى زوج .. أى زوج كان .. يحيطها بالتدليل والغزل ، فتتيه وتجر الذيول .. أو يستبد بها ويستذلها ، فترضى بالمذلة والخنوع .. والنتيجة واحدة فى الحالتين : امرأة ضعيفة لاحول لها ولا قوة إلا بالرجل .

والرسالة .. رسالة الجهاد فى سبيل الله وإعلاء شأن العرب والمسلمين .. التى وجهت اليها كل اهتمامها — ما أسعدها بالكفاح من أجلها .. وما أسعدها بأن يمضى عبد الوهاب فى سبيلها .

وما كان أشد شوقها الى ولدها .. كان فى الخلاء مع أصحابه الفرسان السود : ميمون الجماس و نافع وغيرهما ، يتدرب معهم على القتال والطعان تحت إشراف الأمير عبد الله ، ورأى أمه قادمة فيمن بقى معها من الفرسان ، فترجل وترجلت ، وتعانقا وضمته إلى صدرها فى حنان وهى تغالب دموع الفرح .

وحدثت ذات الهمة الأمير عبد الله وسائر القوم بما وقع لها ، وأنهت اليهم ماعلمت من أخبار الروم ، وكان فيما استطاعت الحصول عليه من هذه الأخبار أن ملك الروم يعد العدة للخروج الى بلاد المسلمين ، وقد جمع العساكر والعشائر من سائر الأقاليم وما ينتظر إلا وصول « جرجيس » أمير الجزيرة .

وأشارت بأن يكون لهم جواسيس يذهبون إلى بلاد الأعداء وإلى العرب الموالين لهم ليأتوا بأخبارهم .

وقال الأمير عبد الله : لقد جاءتنا الأخبار من بادية الحجاز أن كثيرا من الفرسان تجمعوا هناك من كل الأحياء والقبائل للمجىء إلى ملطية والجهاد ، وعن قريب يصلون الينا . وقد أرسلت إلى الخليفة كي يمدنا بعساكر وأبطال من العراق .

* * *

وتفرغت ذات الهمة لتدريب ولدها عبد الوهاب ، تخرج به إلى الميدان وتعلمه مقارعة الفرسان وخدع الحرب والطعان .

وذات يوم أحست بخروجه قبيل الفجر الى المسجد ، فقامت وركبت جوادها وسارت تتبعه متخفية والنقاب على وجهها ، وأطلقت لجوادها العنان حتى لحقت به وصاحت من خلفه :

— إلى أين يا ابن البدوية .. ؟ سأسقيك اليوم شراب المنية ..

وهجمت عليه ، وضايقته ، وألصقت جوادها بجواده ، ومدت يدها وهزته بكل قوتها وأرادت أن تخلعه من سرجه ، فوجدته مثل الصخرة الصماء التى لا تزول ولا تحول من مكانها .

فاتجه إليها عبد الوهاب ثابت الجنان وأمسك بذراعيها وعصر يدها .. فتألمت ، فكشفت وجهها وضحكت .. فلما رآها خجل وقال لها : أتريدين أن تختبريني ؟!

ثم أضاف متأدبا :

— أما قلت لك يا أماه إنى من طبقتك ؟

وذهبت معه الى المسجد وصليا . وفى طريق عودتهما رأيا « عمرا » ابن الأمير عبد الله قد بكر به الى الميدان مدربه « داود النجار » الذى ألف كتاب الفروسية

ولم يكن أحد أخبر منه بالفروسية فى زمانه ، ولهذا أحضره عبد الله ليعلم ولده ويدربه وأفاض عليه بالمال . قال عبد الوهاب لأمه :

— يا أماه ، إنى أشتهى أن أجرب نفسى مع هذا الرجل أستاذ عمرو .

— ياولدى ، هذا فارس الزمان ، وأخاف أن يجد معك محافظة على منزلته فيؤذيك .

— دعى عنك هذا ، فلابد أن أبرز اليه .

وفى هذا الوقت أقبل الأمير عبد الله ، ولحظ أنهما يتحاوران ، فقال :

— عمى صباحا أيتها الأميرة ، وأنت ياولدى عبد الوهاب .. عم صباحا . فيم تتحاوران ؟ فحدثته بالحديث فقال لها :

— دعيه يفعل مايريد . إن الإنسان إذا كان فى رأسه نخوة وحمية فإنه يطلب المنزلة العلية .

ونادى ولده عمرا كى يتخلى عن المجال ، وقال لعبد الوهاب :

— دونك ياولدى وماتطلب .

تقدم عبد الوهاب على ظهر جواده ، فجال فى الميدان ، ولعب بالرمح والسنان ، حتى أذهل الفرسان وحير الأذهان . وحمل على داود النجار ، فجال معه وأوسع فى المجال . وهجم عليه داود وصاح به فوجده ثابت الجنان . فتعجب منه غاية العجب وحكم له بالشجاعة بين سائر العرب ، وقال لذات الهمة :

أهنئك بهذا الفارس .. فوالله ليكونن له شأن أى شأن ..

وشاع ذكر عبد الوهاب ، وتناقل الناس أمر شجاعته ، وانتشر صيته ، حتى وصل إلى بلاد الروم ، ولما سمع ظالم به وبفروسيته قال : هكذا يكون أولاد الزنا والفجار ..

— ٣١ —

قدم على ظالم أمير من أمراء العرب يقال له « حرب بن شيبان » وكان قليل الدين كثير الآثام أكالا للحرام ، يقطع الطريق فى كل الفجاج ، ويأخذ أموال الحجاج ، واصطحب معه ألفين من الفتاك ، ليس فيهم من يعرف له دينا ولا مذهبا.

ودخل بهم ظالم على ملك الروم ، فأكرمهم وأهدى إليهم الهدايا ، وأقطعهم الاقطاعيات ، واشتد بهم ظهر ظالم ، وضربوا خيامهم بجواره ، وأقاموا جميعا ينتظرون أمر لاوون بالتحرك مع جيش الروم لقتال المسلمين .

وتحدث ظالم فى سمر ذات ليلة عن رغبته فى هلاك عبد الوهاب وأمه ، فقام من بين رجال حرب بن شيبان رجل يسمى «دويب» موصوف بالقوة والشجاعة ، وتحت يده خمسمائة فارس .

فقال لظالم :

— يا أمير ، أنا آتيك بعبد الوهاب وأمه أسيرين أو مقتولين .

— أسرع أيها الفارس الجليل ، ولك كل ما تطلب ..

قال حرب بن شيبان :

— وكيف تفعل يادويب ؟

— سأتسلل إليهم وآخذهم على غرة ..

— وإن فطنوا إليك ..؟

— أقول انى أتيت من الحجاز أطلب الجهاد فى طاعة رب العباد وفتح البلاد .

قـال ظالم :

— سر .. بارك الله فيك ..

لمـا اقترب دويب وفرسانه من حدود ملطية ، ورآهم الحراس،سألوهم عن حالهم فأجاب دويب :

— نحن أتينا من الحجاز فى طلب الجهاد ، فوصلنا الى الحارث وظالم ، فقالا لنا لا نعطيكم شيئا الا اذا خرجتم من دين الاسلام ، فشق ذلك علينا ، وما رأينا أن نبيع الآخرة بالدنيا .

وضربوا خيامهم ونزلوا ، وجعلوا لهم عيونا على عبد الوهاب يرقبون خطواته وتنقلاته ..

حتى علموا بمكانه ذات يوما خرج فيه إلى الصيد ، ولما فرغ من جولته جلس يستريح ومعه ميمون الجماس ، فهجموا عليهما ، وقام عبد الوهاب مبغوتا . . فناداه دويب :

— إلى أين تمضى يا ابن مرزوق ؟ مصرعك اليوم فى هذه الفلاة ..

وأحاط الفرسان بعبـد الوهاب وميمون . فلما رأى عبد الوهاب ذلك كاد يمزقه الغيظ .. واستل سيفه وحمل على الخيل بقلب قوى وجنان ثابت ، وتبعه ميمون ، وهو يزمجـر ، وحمل مع عبد الوهاب وقد احمرت عيناه وعـلا الزبد شفتيه ..

ولحظ عبدالوهاب أن دويبا يضيق عليه ويريد أن يغدر به ، فقصد إليه وعاجله بضربة من كلتا يديه وقعت على كتفه فشقته نصفين ، فتكاثر عليه الفرسان ، فأعمل فيهم السيف ، وكذلك فعل ميمون الجماس ، وعلت الأصوات وكـثر الصياح ، وما وصل الخبر إلى ملطية حتى ركب الجميع مسرعين ، وكان عبد الوهاب وميمون

قد قتلا مائتين من الفرسان ، وصاحت ذات الهمة : واولداه .. وحملت وحمل معها الفرسان السود أصحاب عبدالوهاب فقتلوا من ثبت من رجال دويب وفر الباقون ..

* * *

دخل حارس من حراس الحدود على الأمير عبدالله وقال له :

— أيها الأمير ، قم وأخرج إلى لقاء العرب ، فقد جاء عدد كبير من بنى عمك وأقاربك ، وأكثرهم من بنى سليم وبنى كلاب ، ولو أردت أن تفتح بهم بلاد الروم لفعلت ..

وركبت ذات الهمة فى بنى كلاب ، وركب عبدالوهاب فى أصحابه السود ، وركب الأمير عبدالله فى بنى سليم ، وخرجوا جميعا لاستقبال الوافدين من قبائل البادية ، وعادوا بهم إلى ملطية ، وأقيمت الولائم ، وانعقدت حلقات الرقص والأغانى فرحا بقدومهم ..

وغداة ذلك اليوم أتى البشير بخبر وصول عساكر العراق ، وكانت عدتهم عشرة آلاف فارس بقيادة فارس من أولاد الحسين بن على بن أبى طالب يقال له « هارون العلوى » ومعهم الف من سود البصرة على رأسهم عملاق اسمه « سملق » كأنه الليل إذا غسق ، وله صوت كالرعد إذا خفق . فاتصلت الأفراح بقدوم المجاهدين ، واحتفى عبد الوهاب بسود البصرة ، وأعجب سملق بعبد الوهاب وتعلق به ، وقال للقوم بصوته الجهورى :

— إنى أريد أن أكون مع هذا الأمير أنا ورجالى ، نكون من المقربين اليه ونضرب بالحسام بين يديه ، لا نبرح هذه الأمصار ، ونأكل من هذه الثمار ، ونشرب من هذه الأنهار .

ففرح بهم عبد الوهاب ، وضمهم إلى رجاله .

وبعد أيام قلائل من وصول عرب البادية والعراق إلى ملطية جاءت الجواسيس من بلاد الروم إلى الأمير عبد الله بأن ملك الروم خرج من القسطنطينية بجيش لاتحصى جنوده ، ومعهم ظالم وولده وحرب بن شيبان في عشرة آلاف من رجالها ، فجمع عبد الله أهل الرأى والمشورة .

وقال هارون العلوى :

— الرأى عندى أن نسير اليهم قبل أن يقدموا علينا ..

وقال الحصين بن ثعلبة :

— هذا هو الرأى السديد ..

وقال عبد الله :

— نعم ما أشرت به ...

ثم أمر المنادى أن ينادى فى ملطية و بين المضارب : «معاشر المجاهدين والأبطال أعدوا العدة للقتال ، وشدوا الرحال ، فالسفر بعد ثلاث ليال .»

- ٣٢ -

كان للحصين بن ثعلبة ولد اسمه « محمد » قد كتبه فى ديوان المجاهدين ، وصار له بذلك كل سنة خمسمائة دينار يأخذها من الأمير عبد الله كأى محارب فى جيش المسلمين ، ولكن محمداً لم يكن يحضر حربا ولا ضربا ، بل كان يفزع اذا رأى فأرا فى الدار أو سمع من الثور الخوار ، وكان الى جبنه كسولا ، حتى إنه إذا كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم فانه يكسل أن يزحف من الشمس الحامية الى الظل .. وقد ضاق به أبوه وعيل صبره وتحير فى أمره وتحسر على خيبته وكسله . وفكر الحصين وقال فى نفسه : ما أظن أن يكون ولدى هذا فارسا فى يوم من الأيام ، فماله جرأة على الحرب والنزال ، وليس لى إلاأن أدفعه الى الفقيه عقبة بن مصعب ليعلمه القرآن الكريم وشيئا من العلوم . وأخذه الى عقبة وعهد إليه فى تعليمه .

وتسلمه عقبة وحار هو أيضا فى أمره،فقدوجده قذرا كسولا ،وكلما كلفه شيئا أفسده ، وإن حمله زبدية كسرها ، وليس أحب إليه من الكسل والبطالة ، ولهذا أطلق عليه لقب « البطال » .

ولله فى خلقه شئون ..فقد أمات الله نشاطه البدنى وأحيا فى نفسه الفهم والفطنة والروحانية . . وكان سريع الحفظ ، يحفظ فى يوم واحد ما يحفظه غيره في شهر .

وكان يقرأ على عقبة جماعة من الرجال قصدوه من مختلف الأقطار لتحصيل اللغة والنحو والفقه والتفسير وسائر العلوم ، وكان فيهم رجل من اليمن اسمه « قليح بن قابوس » كان معه كتاب يسمى « ينبوع الحكمة » احتوى كثيرا من الحكم

والمسائل والمعارف ، ولا يوجد له مثيل . وكان يقرأه على عقبة ليفسر له ما غمض منه ويصحح عليه عباراته ..

دخل عقبة على أخته ذات يوم ، وتحدث اليها ، فسمعه محمد البطال يقول لها : لو ملكت الكتاب الذى مع قليح فتحت به مغاليق العلوم واطلعت على كل أمر مكتوم.

جعل البطال يفكر فى أمر هذا الكتاب ، وقامت فى نفسه رغبة شديدة فى الحصول عليه . خرج من منزل عقبة وقصد الى بيت أبيه ،ودون أن يراه أحد لبس ملابس امرأة وتنقب والتف بإزار... واتجه الى بيت قليح ، وأخذ معه مجلدا يشتمل على أوراق ليست بذات قيمة ، فلما وصل الى باب المنزل طرق الباب ، فقال قليح :

— من بالباب ؟

فرقق البطال كلامه وهو يقول :

— أنا أخت القاضى عقبة ..

ففتح قليح الباب ، ورحب بالطارق . وقال هذا وهو لايزال يرقق صوته :

— أخى يسلم عليك ، ويقول لك إنه قد هاجمه مرض الفالج ، فان كان عندك شىء من الترياق كما وصفت فى حضرته ...

وأسرع قليح يقول :

— حبا وكرامة ..

وكان يقرأ فى كتاب « ينبوع الحكمة » فوضعه فوق المخدة ودخل الى خزانة الترياق .. وأسرع البطال فأخذ الكتاب وجعل موضعه المجلد الذى كان معه..وخرج قليح بالترياق وأعطاه إياه ، فشكر له وخرج يهز عطفيه ، وكل من رآه لا ينكر عليه ..

شغل قليح عن الكتاب حتى كان صباح اليوم التالى ، اذ هم بالخروج الى عقبة فتناول المجلد و نظر فيه ، فطاش عقله ، وذهب لبه ، وعلم أن الحيلة انطلت عليه من عقبه وأخته ... فأسرع اليه غضبان حزينا . . ولما دخل باد أه بقوله :

— لم فعلت هذا ؟

— أى شيء فعلته ؟

— الكتاب ..

— أى كتاب ؟

— ينبوع الحكمة .. لو أنك طلبته لتنسخه أو تنقل منه شيئا ما كنت أبخل عليك به ..

— لا أدرى ماذا تقصد ..

— ألم ترسل لى أختك تطلب الترياق ؟

— ماذا جرى لعقلك اليوم ؟؟

قال قليح بحدة :

— أتحتال على وتريد أن ترمينى بالجنون ؟

قال عقبة وقد أدرك أنه لا بد فى الامر سر :

— اهدأ أولا ثم احك لى ما حدث ..

فحكى له ما جرى وهو يلومه ويوبخه ..

فأنكر عقبة ما حدث وسخر من قليح ، فاعتدى هذا عليه بالضرب ،فشكاه عقبة الى الامير عبد الله ، وقال وهو يعرض طيلسانه الممزق من الضرب :

— أهكذا يفعل بأئمة المسلمين وعلماء الدين ؟

ونظر هارون العلوى وقال :

— ما يحل أن يفعل بالعلماء هذه الفعال ..

وأمر الأمير عبد الله بضرب قليح ونفيه من ملطية ..

* * *

شغل عقبة بأمر كتاب « ينبوع الحكمة » وجعل يفكر فيمن عسى أن يكون قد احتال على قليح حتى أخذه منه . وأسف على الكتاب ، وود لو كان هو الذى أخذه ، بل ندم لأنه لم يسبق المحتال اليه ..

أما البطال فقد عكف على قراءة الكتاب واستفاد منه علما غزيرا ، وأصبح يتحدث فى مجلس عقبة كما يتحدث العلماء والفلاسفة ، فاذا عرضت مسألة بينها من جميع النواحى ، وقال : هذه المسألة باطلة من ثلاثة وجوه : كذا وكذا . أو صحيحة من ثلاثة وجوه ... الخ .

فتحير عقبة من ذلك واندهش .. وقال له مرة :

— من أين لك هذا يا شيطان ؟

— ما أنا الا تلميذك وثمرة تربيتك ..

فيفرح عقبة بذلك ويسر فى نفسه ، وتذهب عنه الرغبة فى البحث والتقصى ..

* * *

أخذ جيش العرب فى الرحيل الى بلاد الروم — احتار الحصين بن ثعلبة فى موقف ولده محمد البطال .. كيف يأخذ راتبه كمحارب فى صفوف الجيش وهو لا يذهب الى الحرب ولا يستطيع قتالا .. ثم عزم أن يأمره بالمسير الى القتال وليكن ما يكون ..

وقال له :

— يا ولدى ، أنت تعلم أنى كتبت اسمك فى ديوان المجاهدين ، وأخذت راتبك أربع سنين ولا بد من خروجك للقتال ..

فبكى البطال وقال :

— يا أبت ، هل قلت لك اكتب اسمى فى الديوان ؟ إنى لا أستطيع ركوب حمار فضلا عن جواد ..

وشكاه أبوه إلى أستاذه عقبة ، فقال عقبة للبطال :

— ياولدى ، اذهب فى هذه الغزوة ، لا لتشترك فى حرب أو نزال ، بل البس عدة الحرب واخرج فى زى المجاهدين ، وما تقدر عليه إفعله ..

فبكى البطال ، ثم مسح دموعه وقال :

— ياسيدنا ، مالى على شىء مما تدعوننى اليه يدان ، ولست أدرى كيف تكون حالى إذا اصطفت الفرسان فى حومة الميدان وتشابكت الرماح وجد الضرب والطعان .

فضحك عقبة وقال :

— لاتدخل فى معمعة القتال ، وما عليك إلا أن تكبر وتهلل إذا الروم إنكسروا ..

— وإن كانت الحرب علينا . ؟ ؟

— إذا كانت علينا والعياذ بالله فكن أول من يطلب الهرب .

— وإن كانت الكسرة على المسلمين ، وكنت أنا فى أول المنهزمين ، وكان الروم لنا فى كمين ، فكيف يكون حالى ؟ ألست أكون أول الهالكين ؟

فقال والده غاضبا :

— يا أشأم الأولاد ، أليست لك أسوة بهؤلاء المجاهدين الذين جاءوا من كل فج ، وقد باعوا أنفسهم لله ؟

قال بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه :

— ولم لاتكون الأسوة بمن قعد فى ملطية . ؟

وقال عقبه للحصين :

— لافائدة ترجى من ولدك هذا فى حرب أو نزال ، فأرح نفسك ، وأعد ما أخذته من راتبه إلى الأمير عبد الله .

فقال الحصين لابنه :

— ياولدى ، لاتكن عارا علينا ، كيف يقال إن للحصين ولدا ضعيفا جبانا ، قد قعد مع القاعدين ؟

ثم أراد أن يغريه ويطمئنه فقال :

— لن أدعك تباشر حربا ولا قتالا ، بل أركبك الجواد ، ولاتبرح عنك عينى وإذا رأيت خطرا عليك أخذتك ونجوت بك .

فقال البطال مستسلما :

— يا أبت افعل ماتراه ، فهأنذا مطيع لك ، والله يتولانى برحمته ..

– ٣٣ –

نزل جيش العرب فى مكان قرب القسطنطينية يقال له « مرج العيون » فيه عيون تجرى بالماء وأراض واسعة تنتشر فيها الحقول والأشجار ، وقد رأوا أنه أصلح مكان للنزول بعد أن قطعوا أياما فى الفيافى والقفار ، ونال منهم التعب ، ونفد الماء والزاد .

وأقاموا يومين فى مرج العيون ، وما انتصف اليوم الثالث حتى رأوا غبارا يبدو فى الأفق من ناحية القسطنطينية ويمتد ويرتفع ، ثم ينكشف عن خيول وأعلام وفرسان .

ضج العرب بالتهليل والتكبير ، وتقدم القواد فى أوائل الصفوف ، واستعدوا للقتال ، ولكنهم نظروا فرأوا جنود الروم ينزلون ويضربون الخيام حتى ملأوا السهل ، ولم يسعوا إلى حرب ولا صدام .

تطلع العرب الى جنود الروم وهم يواصلون عملهم فى ضرب المضارب ، فرأوا ما أذهلهم من كثرة العدة والعدد ، ورأوا أعداءهم متنوعى الأشكال والأزياء والألوان ، كأنهم جمعوا من كل جنس ، ولحظوا بصفة خاصة رجال ظالم وابن شيبان فريقين : أحدهما يمثل ميمنة جيش الروم تحت قيادة ظالم ، والآخر يشكل الميسرة بقيادة حرب بن شيبان .

وقد آثر العرب أن يتريثوا حتى يروا ما يكون من جيش الأعداء ، ولم يكن يهمهم ويشغل بالهم أمر مثل أمر العرب الذين انضموا الى الأعداء .

○ ○ ○

قالت ذات الهمة لولدها عبد الوهاب ، وقد رأت على وجهه علامات الأسى وشرود التفكير :

— فيم تفكر يابنى وما الذى يشغل بالك ؟

— إنه ليحزننى يا أماه أن أرى أبى وجدى ومن معهما من بنى كلاب فى صفوف أعدائنا .

— هل أخذتك بهم رأفة ياعبد الوهاب ؟

— لا يا أمى ، كم أود أن أظفر بأبى نفسه فأقتله ..

— الحقيقة يا بنى أننا لن نستريح إلا إذا ظفرنا بهم .

— إن الأمر بيننا وبينهم لم يعد مقصورا على عداوة شخصية .

— نعم يابنى ، إنهم منذ أن خرجوا علينا وحالفوا عدونا ، صاروا من أعداء العرب .

— وقدصاروا قوة للروم ، فأصبح علينا أن نواجه عدوين لا عدواً واحداً.

— لقد بعنا أنفسنا لله ، وسنجاهد فى سبيله حتى ننال إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر .

— إننى يا أماه سأقصد إلى الميمنة حيث ظالم والحارث .

— وأنا معك .

وأقبل الأمير عبد الله ، فحياها وجلس يشاركها الحديث، قال عبدالوهاب لأمه:

— دعى لى ولرجالى السود أمر ظالم والحارث .

قالت وهى تضحك :

— وأنا ياعبد الوهاب ؟ هل أقعد مع القاعدين ؟

— لا يا أماه ، لم أقصد هذا . عليك بالميسرة حيث حرب بن شيبان ورجاله .

— فقال عبد الله :

— أتركا حرب بن شيبان لبنى سليم ، وقاتلا أنتما الخارجين من قومكم من بنى كلاب ، وبقية المجاهدين يواجهون قلب جيش الروم ويشاغلونهم حتى نفرغ من العرب الخائنين .

فقالت ذات الهمة :

— حسن ما أشرت به يا أمير ، ان أمر الروم — بعد القضاء على الخونة منا — يهون علينا ونستطيع أن نواجهه . إن خائن قومه ، الخارج عليهم مع عدوهم ، هو العدو الأكبر .

* * *

لما أصبح الصبح زعقت بوقات الروم وخفقت راياتهم ، وتحركت جموعهم ، وصهلت خيل العرب واستلت السيوف ، وانقضت السهام ، والتحم الفريقان فى قتال ليس كمثله قتال ..

وما رأى ذلك محمدالبطال حتى ارتعدت فرائصه ، واصطكت أسنانه ، واهتزت رجلاه فصارتا تتضاربان .. ولم يستطع ركوب الحصان .. ولما شاهد أبوه حاله أخذه من يده إلى ربوة عالية بعيدة عن القتال وقال له : قف هنا ولا تخف .

وبينما هو واقف يرتعد إذ أقبل نحوه رجل من الروم ، فتملكه الخوف وزاد به الرعب ، وقال له :

— ب .. بالله يا .. ياسيدى .. ماذا تريد ؟

— لا تخف .. فأنا أيضا مثلك خائف ..

— من تكون ياجبان .. ياذليل .. يامهان ؟

فقال الرجال ساخرا :

— أنا .. من لم يخلق الله أجبن منه .. يا .. شجاع .. ياعزيز .. يا مهاب . .

ليس هذا وقت مثل هذا الكلام .. تعال .. إننا فى الجبن سواء .

ووقفا يتحدثان عن القتال وويلاته وجنون المقاتلين .. وإذا سهم طائش يمرق بينهما ويغوص فى الأرض قريبا منهما . فصاح الرجل الرومى ، ووقع البطال مغشيا عليه .. وبعد برهة أفاق فقال له الرومى :

— يا أخى .. هل أنت سالم ؟

— انظر الى وجهى يا أخى .. هل تراه صحيحا ؟

وأخذ البطال يهز نفسه ويتحسس جسمه ، ثم قال للرومى :

— الحمد لله .. وانت يا أخى .. هل أصابك مكروه ؟

— انى بخير ، لعنة الله على أولئك المجانين الذين يقودوننا إلى الحرب .. انى يا أخى أحب الحياة ، ولا أريد أن أموت ..

— ومن ذا الذى لايحب الحياة أيها الأحمق ؟

— أنا أحمق يا جبان ؟

فقال البطال ساخرا :

— العفو .. يا فارس الفرسان وقاهر الشجعان .

ونظر غير بعيد ، فرأى ما أثار دهشته ، فقال للرومى :

— انظر ... السهم يتحرك ...

— إنه يهـتز ...

— عجبـا ، تعال ننظر ...

وتقدما إلى مكان السهم ، وأمسك به البطال وجذبه بكلتا يديه ، فاستعصى عليه فأخرج السيف الذى معه وحفر حواليه ، وهاله المنظر .

— ثعبان ... انظر ... لا تخف ... ان السهم مغروس فيه ودمه يسيل ...

قال البطال ذلك ، والتفت إلى صاحبه الرومى فوجده قد ولى بعيدا مذعورا ... أما هو فإنه يشعر بجرأة لاعهد له بهـا .. أمسك بالثعبان الدامى وجعل يقلبـه ويقول : سبحان الله . . هذا الثعبان المختفى فى باطن الأرض ينفذ اليه السهم فيرديه ونحن على ظهر الأرض مستهدفون للسهام فلا يصيبنا سوء ...

ونظر بعيدا فرأى الرجل الرومى ملقى على الأرض ، فقصد اليه وفحصه فوجده جثة هامدة وفى صدره سهم طائش .

« مات ... مات المسكين ... لم يمنعه من الموت خوف ولا حـذر ... وكم من شجاع خاض المعركة وعاد سالما »

وبينما هو واقف هكذا يحدث نفسه رأى جوادا يعدو وليس على ظهره أحد ، فأحس بدافع قوى يدفعه اليه ... فاعترض طريقه ، وفى لحظة خاطفة كان على ظهره وقد جرد سيفه وحمل على الروم مع الحاملين عليهم من قومه ... وصال وجال فى ميدان القتال ، وجعل يبارز الفرسان ويصرع الأبطال ... ولمحه أبوه فعجب ... ولم يصدق عينيه ... اهذا حقا ابنه البطال أم هو شخص آخر ... وتريث حتى رآه فى ناحية من الميدان وقد فرغ من مقاتليه . . فر منهم من فر وهلك من هلك ... فدنا منـه قائلا :

— ويحك ... من أنت ؟

— أنا ولدك محمـد ...

— حقا ؟ كم أنا فخور بك ... هذا يوم ميلادك ...

— أنا اليوم يا أبي أشجع خلق الله .

— أنت منذ اليوم رجل... إن مت مت شهيدا ... وإن عشت عشت عزيزا ...

— ٣٤ —

رجع جنود العرب فى ذلك اليوم الى مضاربهم ، وقد لقوا من القتال مالقوا ... وجدوا من جيش الروم والعرب المنضمين اليهم عدوا شديد البأس وافر العدد ، واستشهد منهم كثير ، وقد هال الأمر ذات الهمة والأمير عبد الله وباقى القواد ، وأرادوا أن يعقدوا مجلسا للتشاور ، ولوحظ أن الحصين غير حاضر ، فسألوا عنه فقيل إنه يبحث عن ولده « البطال » الذى اختفى عن الأنظار ولم يعد الى المضارب .

وبعد قليل أقبل الحصين ومعه ولده .. فقالت له ذات الهمة :

— أهلا ومرحبا بالأمير الحصين .. من هذا الفتى ؟

— هذا ولدى محمد البطال .

وكانت ذات الهمة قد سمعت نبأ البطال واستبساله فى القتال ، فابتسمت له ورحبت به وقالت له مازحة :

— ما أنت اليوم بطال ..

ثم أضافت فى لهجة جادة :

— أنت بطل من الأبطال ..

أطرق البطال فى خجل ، ثم رفع رأسه وقال :

— يا أميرة ، قمت اليوم بتدبير ستكون فيه نصرة العرب ان شاء الله ..

— قل أيها الفتى ما عندك من الكلام ..

— لما رجعت وقد رأيت قلة العرب وضعفهم وكثرة الروم وقوتهم ، جعلت أفكر وأدبر .... لبست ثياب جندى من قتلى الروم ، وذهبت الى معسكرهم وأنا لا أشعر بأى خوف أو أية رهبة وبصرت بحرب بن شيبان عند عمك ظالم ..

— إنى بريئة منه الى يوم القيامة ..

— ومعهم رجل من العرب الخونة يقال له ثابت بن ربيعة يقولون عنه : لم يركب جوادا من هو أشجع منه ..

وقد علمت أنهم دبروا أن يرسلوه إليكم فى ألف فارس من أشداء رجالهم ويقول لكم إنه رجع إليكم وندم على ما فعل ، ثم يتفرقون فى الصباح البكر .. كل مائة عند خيمة من خيام القادة ، ويأخذونكم قبضا باليد ، ويذهبون بكم إلى ظالم ..

— ومن يريدون أن يأخذوا ؟

— أوصاه ظالم بك وبعبد الوهاب خاصة لأنه يريد قتلكما .

التفت الأمير عبد الله إلى الحصين قائلا :

— ما رأيك فى ملاقاتهم ؟

فنظر البطال إلى أبيه كأنه يستأذنه فى الكلام وقال :

— عندى رأى أرجو أن تأذنوا لى بابدائه ..

قالت ذات الهمة :

— قل ما عندك يافتى . .

الرأى عندى أن تحسنوا استقبالهم وتقدموا لهم الطعام .

وسكت هنيهة ثم أخرج من جيبه زجاجة وقال :

— وقد أعددت هذا السم كى يوضع لهم فى الطعام .

ارتفعت أصوات الحاضرين بالاستحسان والموافقة .

* * *

أقبل ثابت بن ربيعة بجحفله ، واستقبلهم الأمير عبد الله وهارون العلوى والحصين وذات الهمة وعبد الوهاب ، وانشغل البطال بإعداد الطعام .

وأجلس كل مائة من فرسان ثابت فى خيمة ، وبقى ثابت ومعه العشرة المقدمون فى جيشه لكى يأكلوا مع أمراء جيش العرب .

وقدم الطعام المسموم لمن فى الخيام فهلكوا جميعا . أما ثابت وأصحابه فقد شغلتهم ذات الهمة بالحديث والسمر .. وإذا هم يفاجئون بعبد الوهاب ورجاله السود . . وثب « سملق » على ثابت ولكمه على رأسه فهشمه ، وفعل مثل ذلك بالباقين ميمون الجماس وأصحابه السود ، حتى أفنوهم جميعا .

وقام عبدالوهاب فى الجمع الذى احتشد على أثر ذلك الحادث ، وقال :

— اشهدوا على أنى آخيت محمداً البطال .

وقال البطال :

— أيها الأمير ، إنى جندى من جنودك .

— أطلب ما تشاء وخذ من مالى ما تريد .

— حسبي أخوتك يا أمير ، وما أريد إلا سلامتك ..

* * *

ما أصبح الصبح حتى هب جيش الروم وحلفائهم من العـرب ، وركبوا إلى ميدان القتال وهم يختالون فى جموعهم الـكثيرة ، ونشوة انتصار الأمس تعمل فى رؤوسهم وتهز أعطافهم .. وكانوا ينتظرون أن يعود ثابت وفرسانه يسوقون إليهم ذات الهمة وعبدالوهاب .. ولـكنهم فوجئوا بمنظر لم يـكن لهم فى حسبان .. رأوا فرسان العرب يحملون رؤوسا على أسنة الرماح ، وأنعموا النظر فى هذه الرؤوس فتبينوا فيها رأس ثابت بن ربيعة ورؤوس أصحابه ... فوقع الانـكسار فى قلوبهم وتراجعوا مذهولين .. وكان أشدهم غيظا ظالم ، إذ شعر بخيبة تدبيره وأمله فى فى القضاء على ذات الهمة وولدها ، وبينما هو فى ذهوله وغيظه رأى أخاه مظلوما يبرز من جيش العرب متجها إليه على ظهر جواد يمرق كالسهم وقد شهر سيفه ، ولما دنا منه ناداه :

— يا ظالم ، ما أنت ابن الصحصاح ، وما أنت أهل لهذا النسب . قد صبرت على ظلمك لى ولابنتى دهرا طويلا ، أما الآن وقد خرجت من ذمة العرب ، وصرت من جملة أعدائهم ، فقد نفد صبرى ، وما عدت أستطيع العيش ولى أخ مثلك .. فابرز فى الميدان حتى أطهر منك الأرض أو تقتلنى فأذهب شهيداً .

وما سمع ظالم كلام أخيه حتى فاض به الغضب والغيظ فقفز بجواده إلى الميدان دون أن يرد بكلمة ، واشتبكا فى قتال تجمع فيه حقد الماضى كله .. وحجبهما الغبار عن عيون النظار ساعة من النهار . ثم انـكشف الغبار ونظر الناس فاذا هم يرون ظالما على صدر مظلوم أخيه وقد ذبحه .. رأوه يقطع رأسه ويعود به إلى ظهر حصانه ..

علا الصياح ، وهمت ذات الهمة أن تحمل على عمها ، ولـكن منظر أبيها مذبوحا كان أكثر مما تطيق .. فوقعت مغشيا عليها ..

* * *

ما كاد ظالم ينطلق بحصانه وفى يده رأس أخيه حتى كان فى أثره فارس يناديه :

— قف يا أخس الأجداد ..

كان ذلك الفارس هو عبد الوهاب ، وتابع قوله لجده ظالم :

— قتلت الزاهد العابد المجاهد ، أبشر اليوم بالموت ، ويوم القيامة بجهنم .

والتفت ظالم ، فرأى عبد الوهاب ، ففرح واستبشر ، وهجم عليه وهو يقول :

— أهذا أنت يانسل الأنذال وولد الحرام ؟ اليوم ألحقك بمظلوم ،وأزيل عن قلبي الهموم .

فاستقبله عبد الوهاب ، وأخذ معه فى الطعان ، وجرى بينهما مايشيب الولدان . وتمكن عبد الوهاب من تسديد طعنة الى صدر ظالم نفذت إلى ظهره . فلما رأى الحارث أباه مجندلا على الأرض أخذه الغضب وصاح :

— واأبتاه .. قتلته يا طلعة الغراب .

وقفز إلى الميدان وهو ينادى :

— اللهم أعنى على هذا البغل الأسود .

فلما سمع عبد الوهاب كلام أبيه ، ورأى سيما الغدر بادية عليه ، زاد به الغضب ونادى :

— يا من فى ملكه قد احتجب ، ورفع السماء بغير عمد ، وأرسى الجبال بغير وتد ، أسألك بحق من ركع لك وسجد ، أن تجدد لى القوة والجلد .

وأطبق كل منهما على الآخر .. ثم تبادلا طعنتين نافذتين ، فأما طعنة الحارث

فقد وقعت فى خاصرة عبد الوهاب ، ولم تجاوز الجلد ، وأما طعنة عبد الوهاب فقد كانت قاتلة ألحقت الحارث بأبيه ظالم .

وأحس عبد الوهاب بألم الجرح ، ورأى رجاله الدماء تسيل منه ، فأنزلوه من فوق حصانه وحملوه الى المضرب لتضميد جراحه ، وأقبلت فتاة .. أفسحوا لها الطريق وهم يتهامسون :

— الشريفة علية ..

— بنت من ؟

— بنت هارون العلوى .

ودخلت علية ، وكان عبد الوهاب فى شبه غيبوبة ، فلما سمع صوتها وأحس يدها وهى تضمد جرحه .. أفاق ونظر اليها ، فالتقت عيناه بعينيها ، وشكر لها صنيعها وهو يتلعثم مأخوذا بجمالها ورقتها . ثم خرجت بعد أن تمنت له الشفاء العاجل ولم يفتها أن تبث فى عباراتها كلمات الإعجاب ببطولته . وشعر هو أن الجرح الذى أصابه فى القتال قد التأم ولكن جرحا آخر قد أصابه فى .. قلبه .

وقال له « محمد البطال » وكان فى جملة من أتوا للعناية به :

— أبشر يا أخى ..

فقال وهو لا يزال فى ذهوله :

— بأى شىء يا محمد ؟

— باليد الشريفة التى ضمدت جرحك .

— اليد الشريفة ؟ يد من ؟

— التى كانت هنا الساعة ..

قال وقد تنبه متشوقا إلى معرفتها :

— من تكون هذه الفتاة ؟

— علية بنت هارون العلوى ..

فى مساء اليوم التالى كانت ذات الهمة فى خيمة ولدها عبد الوهاب ، وقد لزمته للعناية بجرحه ، ودخل هارون العلوى ، وسأل عن صحة عبد الوهاب قائلا :

— كيف حال بطلنا عبد الوهاب ؟

وقالت ذات الهمة :

— بخير يا أمير ، شكرا لك ..

وأحس عبد الوهاب بالسعادة تغمره عندما رأى هارون العلوى وسمع كلامه.. وإن كان قد غاب عن الحاضرين ، إذ تراءى له طيف علية.. وأفاق من نشوته على ألم نفسى هاجه .. إذ خطر له خاطر مقلق : ألا يقف سواد لونه حاجزا بينه وبينها؟ ولكن ألم تسع إليه وهو جريح ؟ وكذلك كلمات الإعجاب . وعزز هذا قول هارون وهو يحادث والدته :

— عبد الوهاب فخر العرب ودرع العروبة ، وهذا من تأويل « الرؤيا » التى رآها خليفة رسول الله ، فلولا ما كتب له من شرف وعزة ما جاء رسول الله للخليفة من أجله فى المنام .

ثم قال هارون لذات الهمة :

— جزاك الله خيرا يا أميرة على مابذلت من القتال فى هذا اليوم العصيب، لقد جن ملك الروم عندما علم بقتل ظالم والحارث ، وهجم بجيوشه ، ولولا بسالتك لتمكنوا من الوصول إلى ملطية .

— لقد خسرنا كثيرا من الأرواح فى هذا اليوم .

— شهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وتنبه عبد الوهاب على الحديث ، وكان قد سرح مع طيف علية ، فقال :

— كيف كان الحال اليوم ؟ وماذا جرى بين الفريقين ؟

أجابته والدته :

— كان يا ولدى يوما عبوسا شديدا ، وكان على الفريقين عسيرا .

قال وهو يتحسس جرحه :

— وا أسفاه .. كيف تخلفت اليوم عن القتال .

— ياولدى ، عذرك واضح .

وقال هارون :

— كفاك يا عبد الوهاب أن قتلت الطاغيتين ، لقد دفعت بقتلهما شرا مستطيرا ، كان على العرب أشد خطرا من الروم .

ثم أقبل الحصين بن ثعلبة بادى القلق والحزن ، فسلم وسأل عن صحة عبد الوهاب وجلس مطرقا ، فقالت له ذات الهمة :

— ما بالك يا أبا محمد مطرقا ؟

— يا أميرة ، ولدى محمد البطال كان عندى اليوم فى الضرب إلى أن قتل ولدك والده الحارث وجده ، فخرج فى ذلك الوقت ولم يعد حتى الآن . .

— لعله فى معسكر الروم يدبر أمراً . .

— رأيته قبل خروجه من عندى وقد أحضر دواة وقلما وورقة وقعد يكتب كتابا لا أعلم ما فيه . .

* * *

كان هارون العلوى يشرف على الحراسة فيما يلى ميدان القتال ، وجاءت إليه ذات الهمة كى تأخذ مكانه فى الإشراف على الحراسة ، وإذا هما يسمعان صيحات عالية وخيلا تعدو وتثير الغبار من ناحية الروم ، فقالت ذات الهمة لهارون :

— يا شريف النسب ، ماذا جرى بين أولئك الكلاب ؟

— والله ما أدرى ما هم فيه ، ولكنى أرى العرب المنضمين إلى الروم على ظهور خيلهم وبأيديهم السيوف ، وما أظن إلا أنهم قد وقع بينهم وبين الروم حرب.

— إن كان كذلك فهو البشير لنا . .

— بعد قليل نعلم حقيقة الحال .

وفى الوقت نفسه كان جنود الحراسة فى المقدمة يعترضون طريق فارس مقبل من ناحية الروم .

— قف ، من أنت ؟

— أنا محمد البطال ، قد فعلت ما تعجز عنه الأبطال .

وأتوا به إلى ذات الهمة وهارون العلوى ، فقالت ذات الهمة :

— أهلا بك يا من كان بطالا وصار عمالا . .

— يا أميرة ، دعينا الآن من البطال والعمال ، واسمعى منى المقال ، لقد دبرت حيلة ما سبقنى إليها أحد .

— قل ياخير محتال .

لما رأيت الأمير عبد الوهاب قد جرح بعد أن قتل أباه وجده ، وحمل إلى الخيمة جريحا ، ورأيت جنود الروم يحملون على جنود العرب ، خطر لى خاطر ... كتبت كتابا على لسان العرب حلفاء الروم موجها إلى ذات الهمة وعبد الوهاب وسائر

بنى كلاب ، يقولون فيه : « أما بعد ، فإننا رجعنا إلى ذمة العرب ، وقد أسرفنا على أنفسنا ، وما كان يحملنا على هذا إلا ظالم وولده الحارث ، وقد عزمنا أن تتفرق جماعات بين صفوف الروم ونوقع السيف فيهم ، ونقصد إلى ملكهم فنقتله ، فاذا سمعتم الصياح فاحملوا ، ولتكن حملتكم صوب الملك »

وذهبت بهذا الكتاب إلى معسكر الروم فى زى واحد من العرب المنضمين اليهم وطلبت مقابلة الملك ، ودخلت عليه وهو جالس على كرسيه والقواد من حوله يتحدثون عن القتال ، ويبدون قلقهم وخوفهم من حلفائهم العرب أن ينقلبوا عليهم بعد قتل ظالم والحارث. والملك يقول إنه عول على أن يحضرهم وينعم عليهم حتى يرضيهم .

فقلت فى نفسى : حسن ، هذا يوافق ما أريد ، وتقدمت إلى الملك وكلمته بالرومية فاستراح إلى وقال لى :

— من أنت وما حاجتك ؟

— أنا من أصحاب الشهيد ظالم .

— ماذا عندك ؟

فقدمت اليه الكتاب ، وانتظرت حتى علم ما به ، ثم قلت :

— لقد اختارونى لأحمل هذا الكتاب إلى العرب ، ولم يسعنى أن أشترك فى خيانتكم وقد أوليتنا ما أوليتنا من الإكرام والإنعام ، وقدمتنا على سائر الروم .

والتفت الملك الى حاشيته وقال : هذا الذى كنا نتحدث فيه ، وحق المسيح لأوقعنهم فى شر أعمالهم .

وصاح فى قواده : دونكم هذه الشرذمة المنافقة .

وانتهز جنود الروم هذه الفرصة ، لما يحملون من الحقد والكراهية للعرب المتحالفين معهم ، لتعاليهم وتباهيهم بشجاعتهم ، ولتكريم الملك لهم وتقديمهم على الروم .

وقد رأيت جيش الروم يهاجم العرب حلفاءهم فى خيامهم ، وهؤلاء قد هبوا يدافعون عن أنفسهم ، فأسرعت اليكم .

وختم البطال كلامه بقوله :

— احملى الآن أيتها الأميرة فى سائر الأبطال .

فقالت ذات الهمة :

— نعم هذه هى الواقعة الفاصلة .

وقال هارون العلوى :

— ما تمكن الروم منا وعزوا علينا إلا بالخارجين منا ...

وقال البطال :

— قد انتهى أمر الخونة .

— ٣٥ —

ركبت ذات الهمة وركب عبد الوهاب على رأس رجاله السود ، وركب الفرسان من بنى كلاب و بنى سليم وسائر العرب المجاهدين . وما كان أسعد الحصين وهو يرى ولده البطال يعلو ظهر جواده و بيده السيف ... وقد ناداه قائلا :

— يا محمد ، لا تغفل عن البنات والنساء .

وأشار له إلى الهوادج التى تحمل النساء على الجمال ، على عادة العرب فى استصحاب النساء بالمعارك الكبيرة ، كى يحمسن الرجال ويعتنين بالجرحى .

وألقى محمد البطال نظرة على الهوادج ، ثم لكز حصانه حتى حاذى به عبدالوهاب وهو على ظهر جواده متأهبا للقتال ، وهمس له :

— لا تنس الهوادج ...

— ما تقصد يا أخى ؟

— علية هناك ... إنها ترقبك ...

ولكز البطال حصانه مسرعا دون أن ينظر الى عبد الوهاب ... أما هذا فانه خجل أولا من النظر ناحية الهوادج ، إن مئات العيون ترقبه ، ولكن عينين فقط منها يود أن تلتقى بهما عيناه ... كما حدث فى أول لقاء ... ولم يملك نفسه أن نظر ... هى بعينيها ... إنهـا حقا تنظر اليه ، حمل اليه بريق عينيها مشاعر عجيبة ... كلها تمده بقوة أعظم من قوته ... الويل للأعداء ...

إنها تنتظر النصر .. لن أعود الا ظافرا ، أو أسقط شهيدا ، وقد أعود جريحا ما أمتع أن أكون جريحا ، فستأتى لتضمد جراحى .. جراح جسمى ، أما جراح قلبى فلن تشفى .

بعد هذه المعركة ، ولعلها الفاصلة ، لابد من شىء .. هارون العلوى .. الرجل الطيب الشريف النسب .. الذى يحكى الرؤيا .. رؤيا الخليفة المنصور التى أثبتت النسب ..

والأم .. البطلة .. التى تتلخص حياتها وكفاحها فى هاتين الكلمتين العظيمتين : الأمومة والبطولة ..

وعلية .. أمنية النفس وبلسم القلب ..

ورجال تدعى الى مآدب .. فرسان يختالون على جيادهم .. ونساء تضرب الدفوف وتغنى وترقص ..

وهودج العرس يتمايل .. بعلية ..

وكلام كثير يقال .. تنطقه الأفواه فرحة ..

صور وخواطر سريعة تمر بمخيلة البطل وهو يرقب ميدان القتال ، عن يمينه « مملق » وعن شماله « ميمون الجماس » ومن تحته جواده الأسود كل قطعة فيه تتوثب .. والسيف الى جانبه فى غمده ، مشتاق الى يده ..

والأم البطلة .. وقفت على مقربة منه فى مثل أهبته .. ترقبه فى اختلاس .. هى الثانية التى ترقبه فى حب وإشفاق .

* * *

اشتبك الفريقان ، والتحم الفرسان ، وعمل سيف العرب فى الروم عمل النار فى الحطب . ولم ير لحلفائهم من العرب فى الميدان أثر ، فقد قضى عليهم الروم قبل

أن يخوضوا هذه المعركة ، اذ حسبوا أنهم — كما قال لهم البطال — سيطبقون عليهم مع العرب المجاهدين .

وكانت سيوف عبد الوهاب وذات الهمة وصملق وميمون الجماس والحصين وولده البطال .. تحصد جنود الروم حصدا .. وتبدد جيش لاوون بين قتيل وأسير وهارب .

وجمع العرب الأسلاب والغنائم ، فوجدوها أشياء كثيرة من خيول ودواب وذهب وفضة وأسلحة وملابس وغيرها وقسموا الغنائم على المحاربين بعد إخراج خمسها لبيت المال . ووقف هارون العلوى يقول :

« يا معاشر العرب ، ما كسرت عساكر الروم الا بفضل البطال وحيله ، فأرى أن نجعل له عشرة أسهم »

فوافق الحاضرون على ذلك ، وخص البطال بمال كثير ، فاشترى دارا فى ملطية بعشرة آلاف دينار وصار له خدم وأتباع ، وأصبح يخاطب بالأمير الأجل ..

وكان هارون العلوى مشرفا على جمع الأسرى ، فعلم أن فيهم زوجتى ظالم والحارث الروميتين ومع كل منهما ولد من زوجها ، فأكرمهم وأرسلهم الى عبد الوهاب ، فوضعهم عبد الوهاب فى رعايته ، وسمى أخاه عبد الله ، وعمه مدركة وكان أبواهما قد سمياهما باسمين من أسماء الروم .

* * *

جلس عبد الوهاب أمام خيمته فى ليلة سكب البدر نوره فيها على الأرض ، ومعه أخوه وصديقه محمد البطال . وشكا الأول للثانى — وكان موضع سره — مايلقاه من حب علية ، وقال له مازحا فى عتاب :

— يا بطال ، يظهر أنك بطال حقا ..

— لماذا يا أخى ؟

— لأنك تتركني أعاني من هواي ما أعاني ، ولا تسعفني بحيلة من حيلك .

— حيلي ؟ حيلي مدخرة للحروب والأمور الخطيرة .

— وهل تعد حبي من الصغائر ؟

— لا أقصد ما ذهبت اليه يا أخي ..

— ماذا تعني إذن ؟

— أعني ان الأمر أيسر مما تظن ، فهو لا يحتاج الى حيلة ..

— كيف ذلك ؟

— أنت تحبها ، وهي تحبك ، وأبوها ووالدتك لا يعارضان زواجكما ، بل هما يفرحان به ، والعلوي يعرف قدرك ويحبك .

— لكن ...

— لا كانت « لكن » ..

— ألا تصغ إلي ؟

— قل ، إني مصغ إليك .

— أهي تحبني ؟

قال البطال متعجبا :

— وي .. ماذا تقول ؟

— ما الدليل على حبها ؟

— لو لم تكن تحبك ماسعت إليك وأنت جريح ..

— قد يكون ذلك بدافع المشاركة فى الأهداف القومية والرغبة فى المثوبة من الله ، إذ تعالج واحدا من المجاهدين فى سبيله ..

— يا أخى دع عنك هذا ، لقد كانت ترقبك من الهودج فى ميدان القتال وتنظر إليك نظرة حب لا شك فيها .. اننى اعرف هذه النظرة ولا تخفى على دقائقهـا .

— تعرفها من أين ؟ من كتاب « ينبوع الحكمة » ..

— لا تسخر من « ينبوع الحكمة » نعم أعرفها منه ومن الملاحظة ، إن عينها لم تكن تتحول عنك ..

— وكيف عرفت ذلك ؟ أكنت ترقب الميدان أم النساء ؟

— كلاهما ..

— كلاهما وتمراً .. لقد اشتقنا إلى تمر الحجاز ..

— أليست فواكه ملطية أحلى من تمر الحجاز ؟

— الجهاد أحلى ..

— والحب ... و .. علية ... ؟

وضحكا طويلا ، ثم قال البطال .

— اسمع يا أخى ، لقد فكرت لك فى حيلة ..

— أدركنى بها ..

مساء الغد احتجب فى خيمتك والزم فراشك ولا تظهر لأحد ، وأنا سأذهب إلى بيت هارون العلوى وأقول إنك خرجت وحدك إلى الخلاء فهجم عليك جماعة من الفرسان مجهولون فاشتبكت بهم ، وحملت عليهم فلاذوا بالفرار وقد أصبت منهم

بجراح ، وأقول إنك ملازم للفراش تتألم من جراحك .. وأذهب بعد ذلك إلى والدتك ذات الهمة واقول لها الكلام نفسه ..

— حسن ، ولكن أمى ستنزعج ..

— لا بأس .. تنزعج ساعة ثم تطمئن وتفرح ..

— تفرح بأى شىء ؟

— بعرسك ..

— أهكذ تصير الأمور بهذه السهولة ؟

— سترى ..

— لا بأس بهذه الحيلة يابطال ..

وسكت ثم أضاف :

— أقل ما فيها أن تأتى علية تداوينى ..

قال البطال فى نفسه : أقل مافيها أحسن من الأكثر .. لو علمت ..

* * *

تمت الخطة بنجاح ، فهؤلاء : هارون وعلية وذات الهمة وآخرون صحبوهم ، يسرعون إلى خيمة عبدالوهاب وقد صدقوا كلام البطال الذى حدثهم وهو يتصنع التأثر والحزن . ولما دخلوا الخيمة ووجدوا عبدالوهاب فى الفراش دنت منه والدته فى لهفة وجزع وقالت :

— ما بك ياولدى ؟

ولكن محمد البطال سارع إلى مكان عال فوقف فى هيئة الخطيب وقال :

— أيها الناس ، مالهذا جمعتكم .. انما جمعتكم لأمر غير الذى عرفتم ..

وقف هارون العلوى مشدوها ، وأطرقت علية خجلة ، وساد صمت قطعته ذات الهمة بقولها :

— ويحك يابطال .. لأى شيء جمعتنا ؟

تابع البطال كلامه :

— لا أطيل عليكم ، السألة باختصار .. أن البطل المهاب، الأمير عبدالوهاب ، يطلب ....

وسكت وهو يسعل ، فقالت ذات الهمة وقد ضاقت به :

— يطلب ماذا .. ويحك ..

— يد ذات الطلعة البهية الشريفة علية ..

وعاشت « ملطية » سبعة ايام فى ولائم وأفراح وليال ملاح ...

كتب للمؤلف

(١) غرام الأدباء : دراسة ... دار المعارف (اقرأ) — ١٩٥٦ .

(٢) الست عليه : مجموعة قصص ... ط ١ — المؤسسة روز اليوسف (الكتاب الذهبي) — ١٩٦٠ .

ط ٢ — الدار القومية (الكتاب الماسي) — ١٩٦٥ .

(٣) كتابنا فى طفولتهم : دراسة ... الدار القومية (كتب ثقافية) — ١٩٦٠ .

(٤) حواديت عربية — الطير الحذاوى : قصص شعبية ... دار المعارف — ١٩٦٠ .

(٥) العرب فى قصصهم : دراسة ... الدار القومية (اخترنا للطالب) — ١٩٦١ .

(٦) قصص أعجبتنى : نقد ... دار الفكر العربى (الألف كتاب) — ١٩٦١ .

(٧) مديحة : مجموعة قصص ... الدار القومية (الكتاب الماسى) — ١٩٦٢ .

(٨) صحفيون معاصرون : دراسه ... دار الكرنك — ١٩٦٤ .

(٩) كتب فى الميزان : نقد ... المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة — ١٩٦٤ .

(١٠) حواديت عربية — أم السعد : قصص شعبية ... دار المعارف — ١٩٦٤ .

(١١) حمزة العرب : رواية شعبية ... إدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى — ١٩٦٤ . طبعة خاصة للقوات المسلحة .

وزارة التربية والتعليم — ١٩٦٥ . طبعة خاصة للمدارس .

الدار القومية للطباعة والنشر — ١٩٦٦ طبعة عامة .

(١٢) القصة القصيرة فى مصر : دراسة تاريخية ... الدار القومية (المكتبة العربية ١٩٦٦ .

(١٣) محمد تيمور : دراسة ... الدار المصرية للتأليف — ١٩٦٦ .

(١٤) الواقعية فى الأدب : وزارة الثقافة العراقية — ١٩٦٦ .

(١٥) الصحصاح : رواية شعبية ... ادارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى — ١٩٦٦ . طبعة خاصة للقوات المسلحة .

إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة

يونيه ١٩٦٧